

الوحدة الإسلامية

من منظور الثقلين

السيد محمد باقر الحكيم

كلمة المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) بمناسبة مؤتمر تكريم آية الله الشهيد السيد محمد باقر الحكيم (قدس سره)

عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) : «أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد»
وعن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) : «العلماء باقون ما بقي الدهر... أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه، آه آه شوقاً إلى رؤيتهم». «نهج البلاغة - الحكمة ١٣٩»

«سلام الله ورسوله وصلواتهما على الأرواح الطيبة للشهداء، وخصّ بالذكر الشهداء الأعزّاء الرّوحانيين والحوارات العلمية... السلام على الخالدين من رجال الدين المثيرين الحماس في الآخرين، الذين دوّنوا رسائلهم العلمية والعملية بدماء شهادتهم ومداد دمائهم، والذين صنعوا من شموع حياتهم جواهر مضيئة على منابر الخطابة للناس لهدايتهم ووعظهم.

الفخر والخلود لشهداء الحوزة والروحيين الذين قطعوا عن أنفسهم حبال علاقاتهم ببحوثهم ودروسهم ومدارسهم في معمعة الجهاد، وفكّوا عقال تمّنياتهم الدنيوية عن حقائق علومهم، وحقّوا لضيافة الملائكة حاملي عرش ربّهم، وأنشدوا نشيد الحضور في مجامع الملكوتيين.

السلام على أولئك الذين تقدّموا نحو كشف حقيقة التّفقه في الدين، وأصبحوا لأقوامهم من المنذرين الصادقين، بحيث أصبحت قطرات دمائهم وقطع أجسامهم تشهد بصدق كلّ جزء من أحاديثهم. وحقاً لا يُنتظر من رجال الدين الحقيقيّين في الإسلام والتّشيع إلا أن يكونوا في دعوتهم الناس إلى الحقّ وطريق ذات الشوكة هم يقدّمون الضحايا الأوائل، وأن يكون ختام دفاترهم بدمائهم.

إنّ الذين أدركوا حلقات الذكر للعرفاء العلماء الحوزويين، لم يسمعوا منهم في خلّسات شهودهم أي أمل سوى الشهادة، وهم بدورهم في ضيقاتهم بمحضر التقربّ والخلوص لم يكونوا يطلبون من عطايا الحقّ سبحانه وتعالى سوى عطية الشهادة».

من رسالة الإمام الخميني (قدس سره) إلى الحوزات العلمية

في شهر اسفند عام ١٣٦٧ هـ.ش

أربعة عشر عاماً تمرّ على تأسيس المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) وخلال هذه المسيرة سعى المجمع أن يقدّم على صعيد نشر الثقافة والمعارف الإسلامية، في الدفاع عن حريم القرآن الكريم وسنة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) وكذا الدفاع عن كيان وحقوق أتباع أهل البيت (عليهم السلام) كل ما في وسعه ليصل إلى مستوى ما يطمح إليه السيد القائد آية الله العظمى الخامنّي (دامت بركاته).

ومن هنا نشط المجمع في مجالات البحوث والتحقيقات ومجالات التعليم والتبليغ و...

إنّ المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) يشعر بالاعتزاز والفخر وهو يأخذ على عاتقه مسؤولية تكريم العلماء والذين نذروا حياتهم من أجل الدفاع عن الثقافة الإسلامية الثرة وقيم الإسلام الأصيلة، ومن هنا يشعر المجمع بالفخر وهو يقيم مؤتمره التكريمي لآية الله الشهيد السيد محمد باقر الحكيم (قدس سره) نائب رئيس المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام)، هذه الشخصية العلمية الفذة التي قدمت خدمات كبرى.

ومن المؤكد أن آية الله الشهيد الحكيم(قدس سره) واحد من أبرز الشخصيات العلمية والسياسية ليس على مستوى العراق والعالم الشيعي فحسب بل والعالم الإسلامي كله .
إنّ سعي السيد الشهيد آية الله الحكيم(قدس سره) وجهاده العلمي والسياسي كان ولاشك وراء جزء مهمّ من التغييرات الكبرى على صعيد الصراع مع حزب البعث المتسلط في العراق.
فلقد نهض هذا العالم الربّاني بمهام نشر ثقافة أهل البيت(عليهم السلام) من خلال نشاطاته الواسعة سواء في التدريس وكتابة المقالات والقاء المحاضرات في العديد من المناسبات.
وهذه مؤلفاته التي طُبِع بعضها والتي ستطبع في المستقبل تشهد بنشاط هذا المجاهد الشهيد.

ولقد قيل: «إن قوام أمور الدين والدنيا بشيئين: القلم والسيف والسيف تحت القلم». ولأريب أنّ آية الله الشهيد السيد محمدباقر الحكيم كان مسلحاً بهما معاً.
فهذا يراعه الذي يسيل حكمة وعلماء، وهذه السيوف المصلّاة التي كانت تنتظر إشارته والتي طالما قاتلت الكفر وتحدّت الظلم والظالمين.

وقد جاء في الحديث النبويّ الشريف عن سيّدنا محمد(صلى الله عليه وآله) قوله: «ثلاث تخرق الحجب وتنتهي الى ما بين يدي الله: صرير أقلام العلماء ووطء أقدام المجاهدين...».

ومن المؤكد أن صرير قلم العالم الشهيد ووقع خطى المجاهد السعيد كان يملأ الخافقين وهو يتّجه في مسيرته الجهادية الى أن تفتحت له أبواب الشهادة وحظي بقاء ربّه ربّ العالمين.

وبعد ربع قرن من حياة المنفى والمهجر والبُعد عن الوطن عاد السيد الشهيد الى أرض الوطن بعد أن هوى النظام البعثي العفليّ ; عاد السيد الشهيد ليستقر في جوار مراقده الطاهرين.. عاد ليعيش بين ظهرائي شعب العراق المسلم المعذب المقهور، عاد من أجل أن يسهم في بناء ما دمره الكافرون والظالمون.

ومن فوق منبر الجمعة راح الشهيد السعيد يلقي خطابه الوعظي والارشادي من أجل نشر الوعي في صفوف المؤمنين وكانت محبوبيته بين شعب العراق تزداد يوماً بعد آخر..

ولكن .. يا للحسرة والأسف انطفأ هذا المصباح المتوهج لأن الأبواب التي اعتادت الحياة في الظلام لم تعد تتحمّل هذا الضياء الساطع; فامتدت يد الغدر لتعتدي على حياة هذا المجاهد بعد أن أدّى صلاة الجمعة في جوار المرقد الطاهر للإمام علي(عليه السلام) .

وعانق السيد الحكيم الشهادة فائزاً بقاء الله وبإلها من مسيرة حافلة بالجهاد والعطاء تتكلّل بهذه النهاية السعيدة والفوز العظيم.

ولقد خاب سعي الضالين والمنافقين إذ أرادوا اطفاء هذا النور ، إلا أنّ السيد الحكيم لم يمت لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وإذا غاب شخصه عنا فإن شخصيته ما تزال تشع بالنور من خلال ما قدمه من عطاء...

وما أجمل ما قاله القائد آية الله العظمى السيد الخامنئي (دام ظله): «كان هذا الشهيد العزيز عالماً ومجاهداً تحدّى نظام صدام الخبيث سنين طويلة وبعد أن سقط رمز الشرّ والفساد وقف سداً قوياً بوجه المحتلين الأمريكيين والانجليز ليبدأ جهاده في مقاومة المخططات المشؤومة مستعداً للشهادة في طريق الجهاد الطويل والالتحاق بقوافل الشهداء من آل الحكيم وغيرهم من شهداء العلم والفضيلة في العراق».

يقوم المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) بعقد المؤتمر التكريمي بمناسبة ذكرى استشهاد العالم الفدّ المجاهد شهيد المحراب آية الله السيد محمدباقر الحكيم وبالتعاون مع المؤسسات ذات الاهتمام؛ وذلك بتاريخ الثامن عشر من رجب الأصب (١٤٢٥ هـ) في العاصمة طهران، وسيحضر بهذه المناسبة جمع من علماء العالم الإسلامي لإلقاء كلمات التكريم لهذا الشهيد الكبير.

وتفيد اللجنة الثقافية للمؤتمر التكريمي لآية الله الشهيد السيد محمدباقر الحكيم من هذه الفرصة لتشير الى نشاطها الذي ينقسم الى قسمين:

القسم الأول: إعادة طبع مجموعة من آثار ومؤلفات الشهيد وهي كالآتي:

١ - إعادة طبع كتاب دور أهل البيت (عليهم السلام) في بناء الجماعة الصالحة المجلدين الأول والثاني.

٢ - إعادة طبع كتاب الوحدة الإسلامية من منظور الثقلين.

٣ - إعادة طبع كتاب علوم القرآن بالتعاون مع مجمع الفكر الإسلامي.

٤ - إعادة طبع كتاب تفسير سورة الحمد بالتعاون مع مجمع الفكر الإسلامي.

٥ - إعادة طبع كتاب القصص القرآني بالتعاون مع المركز العالمي للدراسات الإسلامية.

٦ - إعادة طبع كتاب الأخوة الإيمانية بالتعاون مع مؤسسة دار الغدير.

٧ - إعادة طبع كتاب ثورة الحسين (عليه السلام) بالتعاون مع مؤسسة الإمام الحسين (عليه السلام) .

القسم الثاني: اعداد وتوزيع الأقراص المضغوطة التي تشتمل على كتبه التي ستطبع لأول مرة بمناسبة إقامة المؤتمر التكريمي.

١ - طبع حياة وسيرة آية الله الشهيد السيد محمد باقر الحكيم من قبل مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية.

٢ - طبع كتاب الأربعة عشر مناهج ورؤى من قبل مؤسسة طبع آثار الشهيد آية الله الحكيم وبالتعاون مع المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) .

٣ - طبع كتاب شهداء العلم والفضيلة في العراق من قبل المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) الذي يشتمل على سيرة وحياة مئة وعشرين شهيداً من علماء العراق باللغتين العربية والفارسية.

٤ - اعداد وتوزيع الأقراص المضغوطة التي تحتوي على المجموعة الكاملة لآثار الشهيد الحكيم.
في الختام أجد من واجبي أن أقدم فائق شكري وتقديري الى كل الدوائر الثقافية والتنفيذية التي مدّت يد العون من أجل اقامة هذا المؤتمر والى كل ممثليهم المحترمين الذين شاركوا في الجلسات والاجتماعات التحضيرية ..
أسأل الله العليّ القدير أن يوفّق جميع أتباع أهل البيت(عليهم السلام) وأن يغمرهم بالطفاف وليّه ولي العصر بقية الله المهدي وأن يعجّل فرجه.

محمد حسن تشيع

المعاون الثقافي للمجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام)

كلمة المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام)

لعلنا لا نجانب الحقيقة لو قلنا إن من أخطر القضايا وأدق المهمات التي تصدّى لها أئمة أهل البيت (عليهم السلام) خلال حياتهم الزاخرة بالعمل والجهاد وسعوا بكل وجودهم من أجل تحقيقها في الواقع الخارجي على أسس القرآن الكريم وسنة النبي الأمين (صلى الله عليه وآله) هي وحدة الأمة وتماسكها في إطار الكيان الإسلامي العام ، حفاظاً على عظمته وهيئته أمام أعداء الإسلام والمتربّصين به، وتحقيقاً لمصلحة الإسلام العليا في بناء الأمة ورشدها الأمثل في السير اللاحق نحو الله سبحانه وتعالى في أجواء الحب والألفة والكلمة الطيبة والموقف الهادف ، بعيداً عن الضغائن والتعصّب والتنافر والتقاطع فيما بين فرقها ومذاهبها وتجمعاتها ومحاورها ، التي نمت في أجواء تركّات الجاهلية الأولى وأهواء بعض الحكّام المنحرفين والسلّاطين الذين نزوا على سدّة الحكم وعاثوا في بلاد الله وعباده ظلماً وفساداً ، (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ)^(١) (وَالَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)^(٢) .

وقيل من تناول هذه القضية بدارسة شمولية مترابطة تتناولها كمحور موضوعي في البحث والتحليل في آيات الكتاب الكريم وسيرة أهل البيت (عليهم السلام) . ومن هذا القليل المسدّد هو سماحة آية الله السيد محمد باقر الحكيم (رحمه الله) مؤلف هذا الكتاب، الذي جمع في عطائه الإسلامي الوحدوي بين النظرية والتطبيق، وناغمت أطروحته تجربته ، ولعلّ السرّ في التوفيق الذي أحرزه في هذا الكتاب وأمثاله يكمن في هذا الجمع الفريد ، فقد عاش في كنف أكبر المرجعيات الإسلامية المعاصرة المتمثلة في مرجعية والده آية الله العظمى السيد محسن الحكيم (قدس سره) التي شهدت انفتاحاً شاملاً بين فرق المسلمين ومذاهبهم على صعيد المطارحات العلمية والفكرية ، وعلى صعيد الممارسة السياسية والاجتماعية ، وكذلك مرجعية آية الله العظمى المجاهد الإمام الخميني (قدس سره) التي خاضت كفاحاً مريراً وجهاداً متواصلاً من أجل إقامة حكومة الفقيه الإسلامي العادل ، وقادت دفعة هذه الحكومة المباركة

(١) البقرة : ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢) الرعد : ٢٥ .

بعد قيامها، وأثبت للعالم كله عظمه الإسلام وقدرته على توحيد الأمة وتفجير طاقاتها وإثراء قدراتها ، لا على صعيد مواجهة الطاغوت المتفرعن بكل وسائل القدرة المادية والهيمنة الاستكبارية وحسب ، بل على صعيد الأمة ذاتها في إثبات هويتها الرسالية الواحدة وقدرتها على الصمود والبناء ، وطرح النموذج الحيوي الرائد للأمم الإنسانية المعاصرة، كما أنه عاش في كنف التجديد العلمي والطرح الرسالي الهادف للإسلام بأفقه العالمي المعاصر من خلال مرجعية الشهيد السعيد آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر (قدس سره) ، بالإضافة الى التجربة التي عاشها في قضية الوحدة من خلال الاوضاع السياسية والاجتماعية في الساحات الاسلامية ، وخصوصاً الساحة العراقية ، ومحاولات الاستعمار وبعض الحكومات العملية التي حكمت وسيطرت على العراق وشعبه على اساس سياسية «فرق تسد» ، والتركيبية المذهبية في بلده العراق، وقدره المسلمين في مثل هذا البلد الإسلامي الاصيل على التعايش والتكافل الإسلامي فيما بينهم.

كل ذلك أثمر أفقاً واسعاً في قلمه وترابطاً موضوعياً في رواه نجدها واضحة في مضامين مفردات هذه الدراسة البكر ، التي بدأت بتمهيد عن الوحدة الاسلامية من منظور حضاري ، كاشفاً فيه عن أهميتها ، ومستعرضاً لمستلزمات الموقف الإسلامي في مواجهة التحديات المعاصرة ، وكيفية معالجتها ، وأساليب تطوير وتدعيم الحالة الاسلامية في هذه المواجهة ، والضرورة الواقعية والحضارية لقيام الوحدة الاسلامية .

ثم يؤسس هذه الدراسة على أسس من الثقلين المباركين مبتدئاً بالمنظور القرآني للوحدة ، الذي تناول في آياته الكريمة ظاهرة الوحدة والاختلاف في التأريخ الانساني ، وعلاج أسباب الانحراف عن الدين الحق فيها ، ويربط ذلك منطقياً بأسس الوحدة في المجتمع الإسلامي عقائدياً وأخلاقياً ، مستوعباً فيها الوسائل الشرعية من القرآن الكريم والسنة الشريفة ، لتحقيق هذه الوحدة ، مشيراً فيها إلى الثمرات والفوائد التي يكشف عنها تأريخ أهل البيت (عليهم السلام) ، باعتبارهم رواد هذه الوحدة والقادة إليها .

ثم يسبر غور التأريخ المشرق لأهل البيت (عليهم السلام) وهم يخوضون غمار مسيرة الوحدة الاسلامية في الأمة في مختلف المراحل والادوار ، مقررراً فيها المباني التي أسسوا عليها منهجهم العملي في إرساء هذه الوحدة المباركة ، مستنبطاً منها نظرية متميزة لأهل البيت (عليهم السلام) في الوحدة الاسلامية ، والتي كانت رائدة للمسلمين في مسيرتهم الاسلامية عبر التأريخ ، ولم يهمل البعد النقدي من خلال المقارنة بين نظريتهم (عليهم السلام) والنظريات الأخرى ، التي تعاطاها البعض هنا أو هناك .

ثم يخلص سماحته إلى نتيجة علمية قائمة على أسس الثقلين الكريمين ، مدعومة بالواقع التاريخي الرائد لأهل البيت (عليهم السلام) في أسس ومنهج التقريب بين المذاهب الإسلامية في مرحلتنا المعاصرة .

والمعاونية الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) إذ تقدم هذا السفر الجليل إلى القراء الكرام ، تعدهم بأنها ستواصل طرح المزيد من هذه الدراسات البناءة ، مشاركة منها في التعريف بمعالم مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) ، وتقديم أطروحتهم المثلى للمسلمين نحو العدل والقسط ، وإنقاذ البشرية من الظلم والجور ، وإعلاء كلمة الله في الأرض (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)^(٣) .
صدق الله العلي العظيم والحمد لله رب العالمين .

المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام)
المعاونية الثقافية - قم المقدسة

تمهيد

الوحدة الإسلامية من منظور حضاري

أهمية الوحدة الإسلامية

لا شك أنّ الوحدة الإسلامية هي من أهم الموضوعات التي نواجهها في عصرنا الحاضر، والتي يجب أن نتناولها بالبحث والتمحيص، وتحديد المعالم الأساسية لها، ليتضح الموقف تجاهها بشكل كامل، خصوصاً بعد وجود الكيان السياسي الإسلامي المتمثل بالجمهورية الإسلامية في إيران، ووجود النهوض الإسلامي الواسع، الذي جعل المسلمين يتوجهون الى وضع الحياة الاجتماعية لهم على أساس النظرية الإسلامية والمصالح الحقيقية للمسلمين، الأمر الذي أدى بعد عقد من الزمن تقريباً الى قيام دولتين اسلاميتين أخريين (السودان وافغانستان)، وحدث صراع واسع بين المسلمين والأنظمة الحاكمة في بلاد المسلمين التي لا زالت تتمسك بمنهج الظلم والطغيان والتبعية والمصالح الأنانية الضيقة، وتحرص على البقاء في مستنقع الحضارة الغربية، وتحمل جميع مشاكلها الاجتماعية والاقتصادية، بل القبول بالمظاهر الغربية، بعيداً عن العلم والتطور التكنولوجي، أو العزة والكرامة الإنسانية.

ويزداد الموضوع أهمية، عند ما ننظر الى الظروف العالمية، وطبيعة الصراع القائم في عالمنا اليوم، على المستوى الحضاري والاجتماعي والاقتصادي بعد سقوط المعسكر الاشتراكي وانهياره، وخروجه من محاور الصراعات الإنسانية الأساسية، حيث يلاحظ أنّ الإتجاهات الجديدة لرياح الحرب الباردة تعطي لموضوع الوحدة الإسلامية أهمية خاصة في هذه المرحلة من التطور الحضاري.

اتجاه رياح الحرب الباردة

لقد تحولت رياح الحرب الباردة بسقوط المعسكر الاشتراكي الى اتجاهين رئيسيين :
الأول : اتجاه الإنكفاء على الذات - إذا صحّ هذا التعبير - حيث نجد الحضارة الغربية بسبب انتهاء المواجهة ذات الوتيرة والمستويات العالية مع المعسكر الاشتراكي، وعدم وجود ذلك المستوى من المخاطر والمخاطر والمحفزات للدفاع عن النفس، التي كانت

تجعل القوّامين على هذه الحضارة يعضّون الطرف - سابقاً - عن الإهتمام بمشاكلهم الداخلية الإنسانية المعقّدة ، ليؤلّوا الصراع والمواجهة والخطر العسكري والعقائدي والسياسي مع الأعداء الخارجيين ، القدر الأكبر من الإهتمامات ، كلّ هذا التطور سوف يؤدّي الى أن ينكفأ الغربيون على أنفسهم في الإهتمامات الداخلية ، والصراعات والتنافس غير الشريف بينهم ، من أجل المصالح الذاتية الضيقة .

وهنا ترشّح التوقعات بعض المحاور الأساسية للصراعات الذاتية :

أ - الصراع الأوروبي الأمريكي ، لا على المستوى العسكري ولا العلمي ، حيث بلغ التنافس في هذين الميدانين الى القمّة ثم الطريق المسدود ، بل على مستوى الحرب الاقتصادية ، والمزيد من الترف والرفاه على حساب شعوبهم والشعوب الفقيرة .

وقد بدت في الأفق بعض المؤشرات في هذا المجال سواء في حرب الخليج التي حاول الأمريكيون فيها الاستيلاء على مصادر النفط ، والهيمنة على هذه المنطقة الغنيّة من أجل أن يُمسكوا بزمام المبادرة في هذا المجال الحيوي والطاقة المؤثرة في جميع اقتصاديّات العالم ، وكذلك في قضية فرض الرسوم على الصادرات الزراعية الاوربيّة الى الولايات المتحدة الأمريكيّة ، بعد أن رفض الاوروبيون أن يُلغوا الدعم الزراعي الذي يقدمونه للمنتوجات الزراعية في بلادهم للمحافظة على انخفاض الأسعار، وكذلك في نتائج الإنتخابات الأمريكية الأخيرة^(٤) التي كان العامل المؤثر فيها هو الإهتمامات الداخلية الاقتصادية والاجتماعية ، بعد الاضطرابات الواسعة التي شهدتها بعض الولايات الأمريكية في العامين الماضيين ، وتنامي خطر المخدّرات والأمراض الفتاكة التي هي وليدة التفسخ الأخلاقي ، والغرق في مستنقع الشهوات والتحلل غير المحدود ، وفي مقابل ذلك السعي الأوروبي للوحدة الاوربيّة ومعاهدة (ماستريخت) والمشاكل الاقتصادية التي أحدثتها لبعض البلدان الأوروبيّة فضلاً عن المشاكل الاجتماعية والإنسانية الأخرى التي تواجهها أوربا وأمريكا في داخل شعوبها ، أوفي علاقاتها مع العالم الثالث .

(٤) إنتخابات عام (١٩٩٢ م) التي فاز فيها «بيل كلنتون» مرشّح الحزب الديمقراطي على منافسه رئيس الجمهورية «بوش» مرشّح الحزب الجمهوري ، بعد استمرار الإتجاه السياسي لصالح الحزب الجمهوري لمدة اثني عشر سنة ، هي فترة بداية النهوض الإسلامي وحتى الآن مع أنّ «بوش» حقّق انتصاراً كبيراً - كما يدّعي - في حرب الخليج ، والعامل في فوز المرشّح الديمقراطي كما يقال هو الإهتمام بالأوضاع الاقتصادية ومعالجتها .

ب - الصراع الغربي - الشرقي ، الذي يدور الآن بشكل واضح بين «الولايات المتحدة الأمريكية» و«اليابان» ، واختلال التوازن التجاري بينهما، وبروز بعض الدول الشرقية مثل «كوريا الجنوبية» و«تايوان» في هذه المعادلة ، الى جانب المشكلات الحادة التي ولدها انهيار «الاتحاد السوفياتي» و«يوغسلافيا» الى كل من هذين المحورين، واحتمال بروز العملاق الصيني الى ميدان الصراع، أو انهياره تبعاً للاتحاد السوفياتي ، الذي سوف يولد على كلا الحالتين مشكلات عميقة وواسعة في داخل الحضارة الغربية ، بعد أن أصبحت هذه الحضارة هي الرائدة والقوة لكل هذه المساحات ، مما سوف يسلط الضوء بشكل أفضل على طبيعة وحقيقة المشاكل التي تعاني منها هذه الحضارة .

الثاني: اتجاه الحرب الباردة لمواجهة النهوض الإسلامي بسبب تنامي الخوف من الصحوة الإسلامية .

إنّ الصراع بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية ليس صراعاً جديداً، بل هو صراع امتدّ في عمق الزمن الى قرون ، وكانت الحرب العالمية الأولى في أحد أبعادها المهمة ، هو تقسيم تركة الدولة الإسلامية الكبرى المتمثلة بالدولة العثمانية والاستيلاء أو الهيمنة على ما تبقى في العالم الإسلامي ، وقد تحقق هذا الهدف للحضارة الغربية بعد الحرب العالمية الأولى ، وبدأ العالم الإسلامي وكان قد استسلم عسكرياً وسياسياً للحضارة الغربية طيلة العقود الماضية منذ الحرب العالمية الأولى ، وإن بقيت بعض الزوايا والجيوب والمنعطفات تشهد شيئاً من المقاومة - خصوصاً في مجالي الفكر والثقافة - ، ولكنّ الواقع الذي كانت تعيشه البلدان الإسلامية طيلة هذه الفترة ، لم يكن واقعاً يتمثل فيه الصراع الشامل مع الحضارة الغربية ، بل ولا حتى المقاومة الشاملة لها ، إذ أردنا أن ننظر الى الساحة نظرةً عامّة وشموليّة ، نعم كانت هناك أعمال مجيدة وبطولية قام بها بعض علماء الإسلام والمفكرين المسلمين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي في الدفاع عن الإسلام ، وكان لها دور عظيم بعد ذلك في استمرار المقاومة وإحياء روحها ، ومن ثمّ تصعيد المواجهة مع الحضارة الغربيّة .

وقد حدث تحول عظيم في الأوضاع السياسيّة والثقافيّة للعالم الإسلامي بعد قيام الثورة الإسلاميّة في إيران ، وتأسيس الحكم الإسلامي فيها ، حيث انتشرت روح المقاومة والتصدي والنهضة في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، بل وفي صفوف المسلمين المغتربين ،

والذين كان يبدون للناظر لأول وهلة أنهم تحولوا في جميع أبعاد حياتهم ووجودهم الى جانب الحضارة الغربية .

وهنا حاول القِيَمون على الحضارة الغربية أن يعالجوا هذه الظاهرة بالطريقة التي عالجوا وواجهوا بها ظاهرة النهوض القومي والوطني ، وحركة التحرر في العالم العربي والإسلامي ، ومن دون الحاجة الى التحول الى الحرب الباردة في مواجهة عالمية شاملة ، فكانت الحرب العدوانية على الجمهورية الإسلامية ، والتدخل الأجنبي الواسع في منطقة الخليج ، والحصار الاقتصادي والسياسي والتكنولوجي للجمهورية الإسلامية ، ثم حرب الخليج ضد النظام العراقي لاجراجه من الكويت ، والتواجد العسكري فيه ، وكذلك ممارسة الضغوط المستمرة لانهاء المشكلة الفلسطينية لصالح الهيمنة الصهيونية ، وإثارة المخاوف والشكوك ضد الجمهورية الإسلامية ونواياها المستقبلية وعمليات القمع الواسعة للنهوض الإسلامي تحت شعار محاربة الارهاب والتطرف الديني والتخلف الحضاري ، وإحياء أسلوب التحالفات الجانبية ، بعيداً عن الأطر العامة للجامعة العربية ، أو منظمة المؤتمر الإسلامي أو حركة عدم الانحياز ، بل وحتى أبعد من ذلك في محاولة تسخير الأمم المتحدة ومؤسساتها خصوصاً في مجال حقوق الإنسان ، لتحريض بعض الأنظمة في العالم الإسلامي للقيام بالمزيد من الانتهاك لحقوق الإنسان ضد شعوبها تحت هذه الشعارات .

ويبدو حتى الآن أن هذه المحاولة باءت بالفشل ، وبدأ الصرع يأخذ أبعاداً جديدة في المواجهة مع الحضارة الغربية ، يمكن أن نؤشر فيها على عدة نقاط ذات تأثير كبير في هذا الصراع :

أ - ارتفاع درجة حساسية الأمة تجاه محاولات الحضارة الغربية في الانتقاص من الإسلام والعقيدة الإسلامية ، وازدياد الشعور بالمظلومية من قبل الحضارة الغربية من ناحية ، والاعتزاز بالكرامة الإسلامية وقيمها ومثلها من ناحية أخرى ، وقد تكشف هذا الأمر في قضية المرتد «سلمان رشدي» والتي تبدو في البداية أنها قضية عادية ، ولكن الغربيين في توجيههم للصراع ، حولوها الى قضية ذات أبعاد عالمية كشفت في تفاعلاتها عن عمق جذور الصراع الحضاري الغربي ، الإسلامي ، فالغربيون يسمحون لأنفسهم أن يحولوا بمحاكمة المتهمين بارتكاب الجريمة ، وهي جريمة في حق جماعة من الركاب المدنيين العاديين ، ولكنهم لا يسمحوا بمحاكمة شخص ارتكب جريمة بحق الإسلام والأمة

الإسلاميّة جمعاء ، ولا يسمحوا بمحاكمة وإصدار الحكم الذي تقرّه الشريعة الاسلاميّة ، وجميع الأديان السماويّة .

ولكنّ المهم في هذه القضية ليس هذا الجانب ، بل في ما تكشفته عنه من مدى ارتباط المسلمين بالإسلام والثقافة الإسلاميّة ، واستعدادهم لتوحيد موقفهم في الصراعات ذات البعد المركزي^(٥) ، وكذلك في بُعد الإجماع الإسلامي في هذه القضية على مستوى الأمة وحتى دول العالم الإسلامي ، حيث لم يجرؤ أيّ واحد من حكام المسلمين أن يقف موقف المخالف لها . في جانب آخر مهم هو موقف المسلمين المغتربين ، وحتى المولودين في الغرب منهم ، والذي كان في قوته لا يقل عن موقف مسلمي العالم الإسلامي إن لم يكن أشدّ وضوحاً .

ب - التراجع الحضاري والسياسي للحضارة الغربيّة واطروحاتها واتباعها في العالم الإسلامي أمام التطورات السياسيّة في تيّار النهوض الإسلامي الذي لا نحتاج الى الحديث الواسع فيه ، وخصوصاً ما حدث في «جمهورية السودان الإسلاميّة» أوفي «جمهورية أفغانستان» ، حيث تمكّن التيّار الإسلامي من خلال صراع طويل ، وفي أبعاد متعددة أن يكسب الجولة ويقيم الحكومة الإسلاميّة ، تحت سمع وبصر الحضارة الغربيّة والأنظمة التابعة لها ، بما تملك من امكانات وقدرات ماديّة وبشريّة ، وكذلك الصورة الرائعة والمروعة التي حصلت في «الجزائر» من إدلاء الأمة برأيها ، وفي مباراة مفتوحة ، وعلى الطريقة الغربيّة في الاختيار الى جانب الحكم الإسلامي والنهضة الإسلاميّة .

ج - ازدياد الشعور لدى اتباع الحضارة الغربيّة ومنظريها ، بالعجز واليأس بالرغم من سعة دائرة التآمر والتوظيف للامكانات والقدرات حيث يعبر عن ذلك طبيعة ردّ الفعل الغربي بشكل مباشر أوعن طريق «الأتباع» من خلال تصعيد وتيرة القمع في العالم الإسلامي في عصر النظام الجديد ، الذي ينادي بالدفاع عن حقوق الإنسان ، ويرفع شعار تهدئة مناطق التوتر والاضطراب وحلّ المشكلات الاقليمية المستعصية والخروج من مخلفات الحرب الباردة الى الأوضاع السلميّة ، والأمن السياسي والاجتماعي .

إنّ ما حصل في بلدان مثل «أفغانستان» ، و«فلسطين» ، و«العراق» ، و «الجزائر» ، و«مصر» ، و«تونس» ، وغيرها في محاولة للقضاء على النهوض الإسلامي وعدم التمكن من ذلك حتى الآن ، بالرغم من استخدام جميع الوسائل الممكنة والمتيسّرة ، حتى الأسلحة

(٥) لأنّ هذه القضية كانت تمس واحدة من أهم وأكبر القضايا الإسلاميّة التي يجمع المسلمون على الإلتزام بها ، وهي قضية النبي محمد (صلى الله عليه وآله) .

الكيميائية وحرب الإبادة ، ثم محاولة إلصاق التهم بالعوامل الخارجية كإيران والسودان ، أو إطلاقها بشكل عشوائي كتهم التطرف والإرهاب .. كل ذلك يدلل بوضوح على حقيقة هذا الشعور بالعجز وفشل الأطروحة الغربية وأنظمتها الهزيلة .

د - تطور الخطاب السياسي الإسلامي بشكل واضح من خلال ما طرحته الثورة الإسلامية في إيران ، من خطاب إسلامي أصيل يهتم بالكرامة الإنسانية ، كما يهتم بكرامة الله والرسول والدين ، وبالحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للإنسان ، كما يهتم بالشعائر والآداب الإسلامية ، وبالعلم والفضيلة ، ومعالجة المشاكل الإنسانية ، كما يهتم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

إنّ هذا التطوير للخطاب السياسي ، والتأكيد على البُعد الحضاري الأصيل في الإسلام ، هو الذي جعل هذا النهوض الإسلامي صامداً أمام عمليات القمع والإستئصال ، بل ومتعالياً عليها ، وإنّ تخلي الدولة العثمانية عن هذه الهموم الحقيقيّة للإنسان هو الذي جعلها تتراجع وتتداعى بعد ذلك أمام الضربات التي واجهتها من قبل الحضارة الغربيّة .

إنّ شعور الأنظمة في العالم العربي والإسلامي بالعجز أمام حلّ مشكلاتها الداخلية الاجتماعية والسياسيّة ، وبالتالي عدم قدرتها على مواجهة النهوض الإسلامي ، هو الذي أعطى هذا المؤشر الجديد للصراع ، حيث بدأ القوّامون على الحضارة الغربيّة يشعرون بالخوف من نتائج هذه المواجهة الجديدة ، ويدركون الأخطار التي تهدد مفاهيمهم ومصالحهم في المنطقة ، بحيث يجعلهم يصعدون من حدّة القمع ، والإضطهاد ، والعدوان ، وعمليات التضليل، ويؤشرون على محاور وخلفيات هذا الصراع الإسلامي الغربي .

إنّ هذه الأحداث ترشّح النهضة الإسلاميّة أن تكون المحور الحضاري الجديد في الصراع مع الحضارة الغربية ، وبأساليب وإمكانات جديدة، قد لا تخطر على بال المحللين والدارسين الغربيين .

مستلزمات الموقف الإسلامي في الصراع

ولكن السؤال المطروح على المسلمين في هذا المجال هو أين تكمن المستلزمات الحضاريّة والمادية للوقوف في مواجهة هذا الصراع ؟
ويمكن تقديم صورة عامّة عن الجواب من خلال ملاحظة الأبعاد الثلاثة الآتية التي تشكل مجموعها هذه المستلزمات الأساسيّة في تشخيص الموقف لهذه المواجهة من وجهة نظر اسلاميّة .

أ - مواجهة التحديات المعاصرة

ولهذه التحديات ابعاد حضارية وسياسية واجتماعية أفرزتها ظروف العصر الحديث ، وتطوراته ، في جوانبها الإنسانية والمدنيّة والعلمية ، ومنها بالذات إفرازات الحضارة الغربيّة ، والهيمنة العالمية لها ، خصوصاً بعد تراجع الحضارة الغربية وانهيار المعسكر الاشتراكي ، حيث يمكن أن نشير الى بعض هذه التحديات والقضايا :
الأولى : قضية التوفيق بين متطلبات الحرية الانسانيّة على المستوى الفردي ، أو الاجتماعي والإستقلال والإرادة في القرار السياسي ، والتحرر من الهيمنة أو التبعية الأجنبيّة ، في الاقتصاد والثقافة والعلوم من ناحية ، ومتطلبات العدالة الاجتماعية والرفاه الاقتصادي والتعايش السلمي من ناحية أخرى . فإنّ هذه الأمور وإن كانت قد تبدو متجانسة في النظرة الأولى لها ، ولكنّ التوفيق بين متطلباتها وضمان تحقيقها عملياً وواقعياً في الحياة الإنسانية المعاصرة والمتداخلة ، يحتاج الى جهد حضاري وسياسي وبذل تضحي استثنائي ، وإلى روح معنوية عالية ، خصوصاً وأنّ الحضارة الغربية لا زالت تزداد جفافاً وتصحراً في معالجاتها للمشكلات الإنسانية ، بسبب فقدانها للعنصر الروحي ، والعلاقة بعالم الغيب ، والإرتباط بالله تعالى ، الأمر الذي لا يمكن معالجته إلا من خلال الرسالة الإسلاميّة التي تمثل بتكاملها الحلّ الصحيح لهذه المشكلات .

فقد كان أحد الأسباب الرئيسيّة لسقوط الشيوعية التي نادت بالعدالة الاجتماعية ومعاداتها للفطرة الإنسانية ، وخصوصاً الاتجاه الفطري للإيمان بالله ، كما أنّ أحد أسباب ظهور الرأسماليّة التي نادت بالحرية ، هو الفراغ الذي كانت تعيشه المسيحيّة في معالجاتها للتطور العلمي والاجتماعي ، ولا يمكن معالجة هذه التناقضات إلا من خلال رسالة الدّين التي تعالج المشكلات الإنسانية ، كالحريّة والعدالة الاجتماعية والمسألة الروحية ، الى جانب العلاقة بعالم الغيب ، وهذه هي خصوصية الرسالة الاسلامية .

ومن هنا يبدو التحدي الجديد في معالجة مشكلة العدالة الاجتماعية ، لأنَّ المجتمع الانساني بعد سقوط أسطورة الاشتراكية العلمية (الشيوعية) كاطروحة لتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة والقضاء على مظاهر التمييز بين طبقات المجتمع ، والغاء معالم الظلم والإستئثار والإستغلال الذي مارسه الرأسمالية الديمقراطية تحت شعار الحريات العامة والفردية ، وتحقيق التطور من خلال استنفار وتوظيف الدوافع الذاتية ، والمصالح الخاصة ... بعد كلِّ هذا تبرز الآن أخطار عظيمة في طغيان الظلم والإستغلال وبأشكال جديدة ، وليس على حساب مجموعات وشرائح اجتماعية فحسب ، بل على حساب شعوب وأمم بشرية بأكملها ، ومن خلال النظام العالمي الجديد الذي أصبحت «أمريكا» وحلفاؤها فيه ، هي القوة الوحيدة التي تحاول الهيمنة على العالم .

الثانية : قضية الصراع بين الإستكبار والإستضعاف حيث لابدَّ للحالة الإسلامية أن تتحول من حالة الدفاع وامتصاص الهجمات المتوالية التي تشنها قوى الإستكبار العالمي ضدها باعتبار أنَّ الحالة الإسلامية كانت تعيش ضمن دائرة ومساحة الإستضعاف العالمي ... لابدَّ لها من التحول الى حالة المبادرة ، وتقديم الأطروحات المناسبة لحل مشكلات الإنسان ، أو الوقوف على الأقل في المواجهة مع الإستكبار دفاعاً عن كلِّ مستضعفي العالم الذين سوف يقعون - بطبيعة الحال - لقمة سائغة هينة في يد الإستكبار العالمي المتفرد ، إذ لا يوجد من يدافع عن حالة الإستضعاف غير الأمة الاسلامية والحالة الاسلامية .

الثالثة : قضية النظام العالمي الجديد الذي أصبح حقيقة قائمة من خلال التطور العلمي والمدني ، والعلاقات الانسانية الجديدة ، وبالتالي فلا بدَّ من بناء هذا النظام وتطويره باتجاه التكامل الإنساني ، وخدمة المسيرة المتطورة للبشرية .

إنَّ وجود نظام إنساني واحد للبشرية جمعاء هدف مقدَّس وأمل كبير تعيشه البشرية ، منذ العصور الأولى للتاريخ ، وقد بشرت به الرسالات الإلهية، ولذا فمن الضروري أن يتمَّ التحرك بهذا الإتجاه ، ولكن بشكل تكاملي يحقق أهداف البشرية في تكاملها ، من خلال ارتباطها بالله سبحانه وتعالى ، والتزامها بعهودها ومواثيقها ، وتجسيدها لفطرتها الأصلية ، وحبِّها للخير والعدل والصلاح والرفقي والتقدم والإستقرار والأمن ، والعلاقات الإنسانية التي تسودها المحبة والود .

وعلى أساس هذا التطور نجد الحاجة الملحة الى أن يقوم علماء الإسلام ، والمفكرون ، وقادة الحركات الإسلامية ، وغيرهم من حوارى هذه الأمة بحملة تعبويّة واسعة ، على المستوى السياسي والإعلامي والثقافي ، لطرح نظام عالمي جديد متكامل ، يقوم على أساس العقيدة الإلهية ، ومبادئ الإسلام الحنيف ، المستنبطة من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، يخاطب البشرية جمعاء ، ويحلّ مشكلاتها ، ويملأ فراغها وخواءها ، ويطلب منها الإيمان به والإلتزام بأسسه وقوانينه ، ولابدّ أن تبذل الجهود الخيرة والتضحيات الكبيرة من أجل إيصال هذا البلاغ ، وهذه الدعوة العالمية للبشرية كلّها ، وعندما نتحدث عن هذه الجهود والتضحيات والدعوة والبلاغ، لابدّ أن نضع أمام أعيننا مسيرة الأنبياء والرّبانيين والأحبار والعلماء والصّدّيقين في التاريخ الالهي ، وخصوصاً مسيرة سيد الأنبياء (صلى الله عليه وآله) والتي تحدّث عنها القرآن الكريم كثيراً ، فإن مثل هذه المسؤولية الكبيرة ، لا يمكن أن تتحقّق أهدافها ، إلا من خلال هذه الجهود والتضحيات .

إنّ هذه القضية تمثّل قضية من أهمّ التحديات المعاصرة التي يواجهها الإنسان المسلم ، وتواجهها الحالة الإسلامية ، وتكتسب أولوية في مجمل الحالة الإسلامية .

كيفية معالجة هذه التحديات

وبعد هذا الاستعراض للتحديات يبرز أمامنا هذا السؤال : كيف نعالج هذه التحديات الحضاريّة ؟

ويأتي الجواب على ذلك من خلال قضية الوحدة الإسلامية التي وضع أسسها القرآن الكريم ، وعالجها أهل البيت (عليهم السلام) من خلال نظريّة سوف نشير الى معالمها في بحث قادم ، ولكن بصورة إجمالية نجد أنّ هذه المعالجة تأخذ بعدين رئيسيين : البعد النظري والبعد العملي وقد أشرت الى البعد العملي في الأسطر الماضية ، من خلال الاقتداء والتأسي بمسيرة الأنبياء والرّبانيين والصالحين .

وأما البعد النظري فيمكن أن نجد معالمه في الحرية الفكرية والسياسية التي تبنتها نظرية أهل البيت (عليهم السلام) في الوحدة الإسلامية ، حيث يمكن على المستوى الفكري العودة الى دراسة المصادر والمنابع الإسلامية ، والتعرّف على عناصر القوّة فيها ، واستنتاج هذه

المصادر للجواب على المشكلات الأساسية ، ضمن القوانين والضوابط الشرعية ، وفتح باب الاجتهاد الصحيح ، ونفض غبار الماضي عن النصوص الإسلامية ، وكذلك فسح مجال الممارسة السياسية الحرة المقننة والمشروعة على المستوى الاجتماعي والإتصاف بسعة الصدر في فهم واحترام آراء العلماء من جميع المذاهب الإسلامية ، ونظرياتهم ودراساتها بشكل موضوعي ... فإن كل ذلك أمور ضرورية في مواجهة هذه التحديات الحضارية .

ب - تطوير المضمون المعنوي للحالة الإسلامية

لا شك أن المضمون المعنوي العقلي والعاطفي الذي تملكه الحالة الإسلامية ، يمثل أعظم طاقة وأكبر قوة تمتاز بها الحالة الإسلامية ، في موقفها العام تجاه هذا الصراع الحضاري ، لأن الإيمان بالله تعالى وبالرسالة واليوم الآخر ، والمضمون الأخلاقي والتشريعي ومشاعر الحب والولاء لله تعالى ، والعداء للشيطان وكل معالم الشر ، والخوف من العذاب ، والأمل في الفوز بالجنة والأهداف السامية النبيلة المتمثلة بالرضوان الأكبر ، هو القوة الحقيقية التي تنزل عليها الملائكة (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)^(٦) .

وبذلك يصبح هذا المضمون المعنوي والروحي أهم بعد في مستلزمات الموقف في هذه المواجهة ، ومن هنا يكون تطوير هذا المضمون وتصعيده والارتفاع به أهم قضية في هذا المجال .

ولا شك أن تعميق حالة الإيمان بالله تعالى ، والشد الروحي والعاطفي للإنسان المؤمن بالله وبالرسالة والرسول واليوم الآخر تأتي في مقدمة أبعاد هذا التطوير ، وهذا الأمر يحتاج الى منهج للعقيدة وللتزكية والتربية النفسية والروحية .

التمييز بين العقل والعاطفة

وهذا المنهج التربوي للتزكية نجد معالمه في نظرية أهل البيت (عليهم السلام) في التزكية ، وهو جانب مهم في معالجتنا لقضية الوحدة الإسلامية ، ولكن الشيء الذي قد نغفل عنه في

فهنا لهذا المضمون الروحي ، هو قضية العقل والعلم والتمييز بينهما وبين العاطفة والشعور .

إننا بلا شك بحاجة الى العاطفة والمشاعر الجيّاشة المتسمة بالحب والولاء لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين ، وهذه العاطفة تعتبر الطاقة الحركيّة الدافعة ، والشعلة السرمديّة التي لا تنضب ، ولكنّ المواجهة الإسلامية بحاجة في نفس الوقت أيضاً الى منهج عقلي وعلمي في التخاطب والعمل والمواجهة ، كما هي بحاجة الى العواطف والمشاعر ، بل إنّ هذه العواطف والمشاعر إذا أريد لها الاستمرار والبقاء والثبات ، فلا بدّ أن تقوم على أساس عقلي وعلمي ، وبالتالي فلا بدّ من تصعيدها من الحالة العاطفية والشعورية الى المستوى العقلي والعلمي.

وهذا الأمر - بالإضافة الى أنّ النظرية الإسلاميّة تؤكد وتدعمه حيث دعى القرآن الى التدبّر والتعلّل والعمل بمنهج العلم والحجة - تفرضه طبيعة التطور التاريخي لمسيرة البشرية التي بدأت تتحول الى هذا المنهج ، ولا بدّ لها أن تستقرّ عليه في المستقبل ، وهذا ما يفسر لنا ظاهرة إتصاف الرسالة الإسلاميّة بالرسالة الخاتمة ، لأنّ البشرية وصلت في تطورها الإنساني الى مستوى الإعتماد على العقل والعلم من ناحية ، والرسالة الإسلاميّة هي رسالة العقل والعلم ، والمنهج الذي يمكن للإنسان أن يفهمه في كلّ أدواره المستقبلية من ناحية أخرى .

إذن فهناك حاجة الى المناهج العلميّة والعقليّة في التعبير عن مواقفنا ، ولا بدّ من الصعود بالحالة الإسلاميّة من حالة مجرد ردّ الفعل والإنفعال تجاه العهود الطويلة لإضطهاد الإسلام والمسلمين ، والعدوان على القيم الإسلاميّة ، ونهب ثروات الإنسان المسلم ، واستغلال الإنسان في العالم الإسلامي ... الى غير ذلك من أسباب الظلم والضيّع الذي يثير في الإنسان مشاعر الحقد والمقت والثورة والرفض والتحدي .

بل لا بدّ من تحويل الحالة الإسلاميّة الى حالة الفعل الذي يتسم بالثبات والتطور ، وضمن الصيغ العلميّة والعقليّة في التحليل والتخطيط والبرمجة ، ووضع الحلول لتشمل كل مجالات الحياة المهمّة ، ونقاط التماس الساخنة ، وقضايا الصراع والإضطراب الاجتماعي ، والتي يمكن أن نشير الى بعضها في النقاط التالية :

١ - الرؤية والبرنامج الاقتصادي الواضح ، الذي يكون قادراً على توظيف ثروات الأمة واستثمارها ، وتعبئة طاقاتها الواسعة والكبيرة ، وحلّ مشاكلها الاجتماعية والفردية ،

وتحقيق الرفاه المعيشي ، والإستقلال الاقتصادي، والتوازن التجاري ، والوفرة في الإنتاج والعدالة في التوزيع ، والتكافل الاجتماعي ، وحفظ القدرة على المواجهة الحضارية .

٢ - الخطة والبرنامج الاجتماعي الذي يكون قادراً على معالجة قضايا الشباب والمرأة والأسرة بشكل خاص ، وتأثيرات التطور العلمي والمدني على الأوساط الاجتماعية ، والإستفادة من هذه الطاقات الهائلة في خدمة التنمية ، والإبتعاد بها عن مساقط الانحراف والتبعية والشهوات ، وتحقيق حالة الإنسجام بين تطلعاتها وأحاسيسها ، والصيغ الإنسانية والشرعية والمثل والقيم الإلهية .

٣ - البرامج الثقافية والروحية التي تكون قادرة على مواجهة تطورات الفكر الإنساني ، وتطلعاته نحو الغيب والمجهول ، من خلال التقدم العلمي وفرص الدراسات العلمية المعمّقة ، والامكانات الهائلة في المعلومات والإحصاءات والوسائل ، وبالتالي مواجهة التيارات الثقافية الأخرى ، التي تعتمد بشكل أساسي على عناصر الشيطان والهوى وإثارة الغرائز والشهوات وسيطرة الملذات والمنفعة الشخصية .

إنّ تقديم مثل هذه الرؤية العلمية ، والتي تعتمد على مخاطبة العقل الإنساني ، وتربية إرادته والجانب الروحي والمعنوي فيه ، هو المنهج النظري السليم الذي لابدّ للحالة الإسلامية أن تقدمه للمجتمع الإنساني في هذه المواجهة .

ج - الوحدة الإسلامية

تعتبر الوحدة الإسلامية من أهم مستلزمات الوقوف في وجه هذا الصراع الحضاري ، التي يجب على المسلمين جميعاً ، والحركة الإسلامية بشكل خاص الإهتمام بها وتوفير ظروفها ، وتبيين مناهجها وأساليبها ، والعمل على تحقيقها ، بل يمكن أن نقول إنّها الأرضية والقاعدة التي يمكن أن تقوم عليها جميع المستلزمات ، ولا شك أنّ الرغبة الأكيدة في نفوس المسلمين ، والأمل الكبير الذي يعيشه أبناء الأمة الإسلامية لتحقيق الوحدة ، يشكل أفضل أرضية يمكن أن يُقام عليها بناء الوحدة الإسلامية ، حيث تتطلع الأمة بإيجابية لإقامة هذا البناء .

كما أنّ أعداء الإسلام والأمة الإسلامية ، يعملون باستمرار من أجل التركيز على نقاط الخلاف ، وإبراز معالم التناقض والفرقة بين أبناء الأمة ، بل يضعون العدسات المكبرة في كثير من الأحيان ، ويطلقون الأصوات المنكرة، ويملؤون الدنيا ضجيجاً من أجل تأكيد ذلك .

كلّ هذا يؤكد حقيقة لابدّ من الإهتمام بها في مسألة الوحدة ، وهي تحويلها من حالة الشعار والعواطف والمشاعر الجياشة الى عمل هادف له «مبرراته» و«مجالاته» الواضحة ، لأنّ الوحدة الإسلاميّة ليست مجرد رغبة أكيدة ، وأمل كبير فحسب ، بل هي عمل واجب من الناحية الشرعيّة والإسلاميّة ، وفي نفس الوقت ضرورة من ضرورات الحياة الإسلاميّة ، وشرط من شروط القدرة على المواجهة في الصراع الحضاري .
ومن هنا فسوف نتناول «المبررات» و«المجالات» بشيء من التفصيل والتحليل .

أ - مبررات الوحدة الإسلاميّة

وعندما نطرح موضوع مبررات الوحدة الإسلاميّة يمكن أن نشير الى نقاط ثلاث :
الأولى : إنّ الوحدة الاسلاميّة توفر القدرة الحقيقيّة التي يمكن أكن يستند اليها المسلمون في صراعهم الحضاري بعد الله سبحانه فإنّ الأمّة الاسلاميّة ، وإن كانت تملك طاقات بشريّة كبيرة وإمكانات ماديّة هائلة ، ومواقع استراتيجية هامّة ، وروح معنويّة عالية ، وحضارة ، ونظرية عقائديّة ، وفكريّة متكاملة في نظرتها الى الحياة، ولكن بدون هذه الوحدة بين أطرافها وأشلائها سوف تتحول - كما هي الآن - الى مجرد فريسة للأعداء الذين يملكون كلّ هذه الإمكانيات الماديّة والشيطانيّة الكبيرة والهائلة ، ويمدهم رصيد من الهوى والرغبات والشهوات ، وحب الجاه والسلطان قائم في نفوس الضعفاء المظلّلين الشرسين ، أو تتحول الأمّة الى إفراغ طاقاتها في الصراعات الداخلية أو الجانيبة بعيداً عن الأهداف الحقيقيّة لها .

الثانية : إنّ الوحدة الإسلاميّة يمكنها أن توفر فرصاً كبيرة وواسعة للبحث والتقصي والإجتهد والاستنباط للنظرية الإسلاميّة بما يخدم مواجهة التحديات الفكرية والنظرية ، ومعالجة المشكلات الإنسانية التي خلفتها الحضارة المادية والتطور العلمي والمدني ، فإن مثل هذا التطور في الأبحاث والدراسات والفهم ، إنّما يمكن أن يحصل في ظل الإستقرار والتفاهم وحرية الرأي واحترامه ، وتكامل الجهود بعضها الى جانب البعض الآخر .

الثالثة : إنّ الوحدة الاسلاميّة يمكنها - أيضاً - أن توفر فرص التطور والنمو في العالم الإسلامي ، على المستويين المادي بجميع أبعاده ، والمعنوي، وبذلك يمكن للنظرية الاسلاميّة أن تثبت من خلال تحقيق النموذج الاجتماعي الإسلامي القدوة ، والتطور القادر على حلّ المشكلات الاجتماعيّة، فإنّ التكامل الاقتصادي والسياسي والثقافي والروحي والاجتماعي بين أطراف الأمّة الإسلاميّة وإمكاناتها المتوزعة سوف يحقق ذلك الى حد بعيد .

وبذلك يمكن للوحدة الإسلامية أن تساهم في خدمة الإنسانية والتطور الحضاري للبشرية جمعاء ، في نفس الوقت الذي تحقق فيه أهدافها على مستوى الأمة الإسلامية .

ب - مجالات الوحدة الإسلامية

ومن أجل اكمال الصورة في الوحدة الإسلامية ، لابد أن نتبين منذ البداية أنّ المقصود من الوحدة الإسلامية ليس هو تحويل جميع النظريات العقائدية، والاجتهادات الفقهية ، والآراء السياسية للمسلمين ، الى نظرية واجتهاد ورأي واحد ، وإثما المقصود من ذلك هو معالجة مجمل القضايا الأساسية التي تهم المسلمين ، بموقف واحد منسجم يحقق هذه «الوحدة» بينهم وبالتالي يوضح على أرض الواقع مبرراتها السابقة .

ويمكن تلخيص هذه القضايا في المجالات التالية :

الأول : النظرة الكلية العامة لدور الدين في الحياة الإنسانية ، وأنه هل هو مجرد علاقة روحية والتزامات قلبية بين الإنسان وربّه ، وممارسات عبادية وسلوك أخلاقي يمارسه الإنسان ، أو أنّ دور الدين أوسع من ذلك وأشمل ، بحيث يعالج الحياة السياسية للإنسان بأبعادها الاجتماعية والاقتصادية والإدارية والعلاقات الإنسانية ... وكذلك دور الشريعة الإسلامية في تنظيم هذه الحياة .

وعندما نتحدث عن النظرة الكلية لا نقصد بطبيعة الحال المواقف السياسية التفصيلية التي تتخذها هذه الجماعة أو تلك ، فإنّ ذلك يدخل في مجال الاجتهادات المتنوعة . ولا شك أنّ هناك شبه اتفاق عام بين العلماء والمفكرين المسلمين حول هذه النظرية الكلية ، بالرغم من الإثارات ذات الطابع السياسي الذي تصطنعه الإتجاهات السياسية للدول المعادية ، أو الأشخاص الذين يقعون تحت تأثيرها السياسي .

الثاني : الموقف العام تجاه الحقوق الإنسانية العامة في الفكر والرأي والعمل السياسي ، والممارسة العبادية للمسلمين ، والحقوق المدنية لاتباع المذاهب الإسلامية في العالم الإسلامي ، بحيث لا يجوز حرمان اتباع هذا المذهب أوذاك ، من هذه الحقوق العامة ، والتي يشتركون فيها مع بقية المواطنين المسلمين لمجرد انتمائهم الى هذا المذهب أوذاك ، وان لا يتحول عامل الانتماء المذهبي الى امتياز أو نقطة عيب أضعف لصالح الأشخاص أوضاعهم .

الثالث : النظرة الكلية تجاه أعداء الإسلام الأساسيين ، سواء على المستوى العقائدي مثل حركة الاحاد ، والتحلل من الالتزامات الاخلاقية الفطرية ، أو على المستوى السياسي كحركة الفكر العالمي المتمثلة بقوى الهيمنة والتسلط والاستغلال القائمة على أساس المصالح

والمنافع الماديّة ، بعيداً عن جميع القيم والمثل الإنسانية ، والمصالح والمنافع المتبادلة ، وكذلك قوى الصهيونية العالمية والصليبية الطائفية الحاقدة ، التي تعمل ليل نهار في سبيل الكيد بالمسلمين ، أونهب المزيد من أراضيهم وثرواتهم ، انطلاقاً من الأحقاد التاريخية .

إنّ هذه القوى الشيطانية بما تملك من وسائل ماديّة للتضليل والاغراء ، والامكانات السياسيّة والعسكرية والعلمية لممارسة مختلف الضغوط النفسية تمثل العدو الألد للمسلمين الذي يجب الحذر منه ، وبالتالي لابدّ من تشخيصه ومواجهة أساليبه وأضاليه النفاقية .

الرابع : الخلافات المذهبية التي لابدّ من توحيد النظرة الكلية ، والمنهج الذي يتم على أساسه التعامل معها ، فأنّه لا معنى لافتراض الوحدة في هذا المجال على أساس توحيد المذاهب الاسلامية في مذهب واحد مشترك ، فان هذا المنهج في الوحدة غير واقعي ، بل هو غير منطقي ، وانما لابدّ من وضع المنهج على أساس احترام آراء الآخرين من أصحاب المذاهب وممارساتهم العبادية والشخصية أولاً ، وتوحيد مناهج البحث وأساليب النقاش والنقد بعيداً عن النوايا والظنون والشبهات ثانياً .

وسوف نطرح في آخر هذا البحث المنهج الذي نراه صحيحاً وقادراً على معالجة موضوع الوحدة في هذا المجال .

الخامس : توحيد النظرة الكلية الى صيغة الحكم الإسلامي ، ودوره في الحياة السياسية والإنسانية ، بحيث لا يكون هناك تناقض في الصيغ المطروحة للحكم ، كما هو الحال في معالجة هذا الجانب في العالم الديمقراطي ، فأنّه بالرغم من وجود صيغ متعددة في بلدان العالم الديمقراطي، ولكنها متفقة في أساسيات ومقومات النظرة الكلية للحكم ، تشترك فيها كل هذه الصيغ ، ويتفق عليها الديمقراطيون .

والنظرة الاسلامية من خلال تراثها الشرعي وتجاربها الطويلة ، قادرة على استيعاب الصيغ وتقديم المتعدد منها .

ولا شك ان الامة الاسلامية في مجال توحيد الموقف السياسي تحتاج الى قيادة واحدة مركزية ، يمكن ان تبرز من خلال حركة الواقع العملي عندما تتوفر ظروف هذه الوحدة ، وتتحقق مستلزماتها .

الباب الأول

الوحدة الإسلامية من منظور قرآني

لقد تناول القرآن الكريم موضوع الوحدة والاختلاف بشكل واسع ، حيث تحدّث عن ظاهرة الاختلاف في التاريخ الانساني ، وتناول أسبابها وعواملها ، وقَدَّم العلاج لها ، كما تناول موضوع الوحدة وأسسها ، والطرق والأساليب التي يمكن من خلالها الوصول الى الوحدة والاتفاق ، والى جانب الحديث القرآني عن ظاهرة الاختلاف في تاريخ البشرية ، تحدث أيضاً عن الوحدة والاختلاف في المجتمع الإسلامي ، وبالتالي عالج موضوع الوحدة بين المسلمين أنفسهم ، الذين كانوا يتعرضون الى الاختلاف من خلال حركة المجتمع السياسية وتطوراتها ، أو من خلال فعل أعداء الإسلام ، والأمة الاسلامية ، من المشركين والكفار من أهل الكتاب ، وكذلك المنافقين الذين كانوا يعيشون في ضمن المجتمع الإسلامي ، ولكنهم ليسوا من المسلمين ، ولا من أهل الكتاب (مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ)^(٧) .

فهنا بحثان :

الأول : ظاهرة الوحدة والاختلاف في التاريخ الانساني .

الثاني : الوحدة في المجتمع الإسلامي .

الفصل الأول

ظاهرة الوحدة والاختلاف في التاريخ الانساني

ومن خلال البحث في هذا الموضوع نرى من الواضح أنه يمكن أن نقسمه الى قسمين :

القسم الأول : الاختلاف والوحدة كظاهرة انسانية .

القسم الثاني : الاختلاف والوحدة بين الديانات الإلهية .

أما القسم الأول : فنحن نلاحظ من خلال القرآن الكريم أن البشرية كمجتمع بدأت متحدة في سلوكها وعلاقاتها ، كما نصّ القرآن الكريم على ذلك في بعض المواضع :

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)^(٨) .

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)^(٩) .

ويبدو أن هذه الوحدة كانت تقوم على أساس قاعدة النظرة الانسانية التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الإنسان ، وهىأه لهذه الخلافة الإلهية في الأرض والتي تتمثل بالعقل والعلم والارادة :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ...)^(١٠) .

وقد كانت الظروف الإنسانية والحياتية في البداية ملائمة لأن تأخذ هذه النظرة دورها في تحقيق هذه الوحدة واستمرارها ، باعتبار بساطة الحياة الاجتماعية ، وعدم وجود التعقيد في

(٨) البقرة : ٢١٣ .

(٩) يونس : ١٩ .

(١٠) البقرة : ٣٠ - ٣١ .

ظروفها ، سواء على مستوى حاجات هذا الإنسان ومتطلباته التي تقرضها عليه غرائزه وشهواته ، أو على مستوى الامكانيات والقدرات التي يملكها هذا الإنسان ، والتي تجعله غير قادر على بسط نفوذه والتوسع والامتداد ليشمل مساحات جديدة من الحياة الاجتماعية بحيث يؤدي الى دخوله في التناقض مع المساحات الأخرى ، أو على مستوى المعرفة والفهم للوسائل والأسباب التي تخلق له أنواعاً جديدة من الآفاق والطموحات والأهداف والمقاصد ، ويمكن أن نتصور هذه المرحلة الأولى من الحياة الانسانية التي كانت تتحكم فيها الفطرة وتسيرها في ظل الظروف الملائمة ، أنّ الإنسان فيها قد يحدث له بعض التجاوزات الفردية التي كانت تظهر بسبب الهوى ، ولكن سرعان ما يجرع الى فطرته عندما تهدأ سورة الهوى من حقد أو حسد أو غضب أو شهوة ، كما يشير القرآن الكريم الى ذلك في حادثة ابني آدم :

(وَاثْلَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحِثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)^(١١) .

ظاهرة الاختلاف

وبعد هذه المرحلة ومرور فترة زمنية معينة تكامل بها المجتمع البشري، وتوسع في أعدادهِ وحاجاته ومتطلباته جاءت فترة الاختلاف في البشرية .
ويبدو من القرآن الكريم أنّ البشرية في جميع أدوارها كانت محكومة بما يمكن أن نسميه بقانون الاختلاف :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)^(١٢) ، حيث نجد أنّ الاختلاف كواقع خارجي كان موجوداً وقائماً في مختلف المراحل التاريخية ، وقد كان هذا الاختلاف نتيجة طبيعية لقانون آخر وضع الله تعالى البشرية في إطاره ، وهو قانون الامتحان والاختبار ، والذي شكّل المنهج الوحيد لعملية البناء والتكامل للأمم والأفراد الصالحين ، في إطار المخلوق العالم

(١١) المائدة : ٢٧ - ٣١ .

(١٢) هود : ١١٨ - ١١٩ .

والمختار ، الذي يعتمل في نفسه الشعور بالحاجة والرغبات والشهوات، والذي هيا الله تعالى له حياة طويلة ومتنوعة وهي الحياة الدنيا والآخرة ، حيث كانت فترة الامتحان له وهي الحياة الدنيا، فترة العمل من أجل هذا التكامل وفرصة فيه ، وكانت الحياة الأخرى هي فترة الحساب والثواب والعقاب وتحقق الأهداف (الحياة الحقيقية) :

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (١٣) .

(أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) (١٤) .

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) (١٥) .

وقد بدأ الاختلاف في الانسانية بسبب تأثير الهوى الذي أودعه الله عز وجل في النفس البشرية قوة جاذبة تُوازن في عملية تُوازن في عملية الإرادة والاختيار قوة العقل والفطرة الإنسانية ، حيث يعتمد الهوى بالأصل على رؤية الأمور عملياً من خلال المحسوسات المادية فقط والحاجات الأمنية الدنيوية التي تتطلبها الغرائز الإنسانية ، ويعتمد على المشاعر والأحاسيس التي تخلقها المصالح الوقتية ، في مقابل العقل الذي يعتمد على الرؤية الصحيحة والدقيقة لواقع الكون والحياة ، والنظرة الى الحياة الإنسانية على أساس أنها حياة لها امتداداتها الغيبية في المبدأ والمعاد ، وان لها حاجات مادية وروحية معاً لا بد من تكاملها في المتطلبات والالتزامات ، وأهمية ايجاد التوازن بينها في العمل والسلوك (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (١٦) . (زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ بِخَيْرِ مِمَّا دَخَلْتُمْ فِيهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ جَاءَتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) (١٧) .

وكذلك ينظر العقل الى المصالح الانسانية بنظرة شمولية ترتبط بالفرد والمجتمع والحياة الدنيا والآخرة .

(١٣) العنكبوت : ٦٤ .

(١٤) العنكبوت : ٢ .

(١٥) الملك : ٢ .

(١٦) الاعراف : ٣٢ .

(١٧) آل عمران : ١٤ - ١٥ .

ومن هنا نجد الهوى يدعو عملياً الى اطلاق العنان للغرائز والشهوات ويدعو أيضاً الى الاهتمام بالمصالح الخاصة الذاتية من خلال رؤية الإنسان لذاته وحركتها في هذه الحياة الدنيا فقط ، والتي قد تضيق وتتسع حسب فهم هذا الإنسان لهذه الحياة ، ومدى حركته وسعة وجوده أو اندفاعاته الغرائزية التي قد يقوم بعضها على البعض الآخر عندما تتزاحم فيما بينها ، ومن هنا نجد هذا النوع من الناس الماديين مختلفين في اهتماماتهم بالذات ، حيث ان بعضهم يركّز على شخصه أو عشيرته أو أسرته أو على القضايا الجنسية أو المالية أو الجاه والمناصب أو غير ذلك من الشهوات ، لأنّ نظرته لحركة ذاته في الحياة الدنيا تفرض عليه هذا النوع من الاهتمام أذاك .

وفي مقابل ذلك نجد العقل يدعو الى السيطرة على الغرائز و إخضاعها الى الضوابط والقيود ، وتوجيهها في السلوك وفقاً لما تقتضيه المسيرة الطويلة للتكامل الانساني الشامل ، وكذلك يدعو العقل الى الاهتمام بالمصالح الإنسانية العامة والخاصة من خلال رؤية الإنسان لذاته وحركتها في الحياة الدنيا والآخرة معاً ، حيث يصبح حبّ الذات الذي هو من الأمور الفطرية والغريزية في الإنسان ، وكذلك حبّ الخير والشهوات والذات ، لها مداليل أخرى في حياة الإنسان تتسجم مع هذا الفهم ، وكذلك التضحية والفداء والمعاناة والآلام والبذل والانفاق والايثار ، وكذلك العشيرة والأسرة والقبيلة والوطن والناس لهم معان أخرى تصبّ في سبيل الله ورضوان الله ، والوصول الى درجات الانبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا)^(١٨) .

ويمثل هذا المشهد القرآني هذه الرؤية :

(إِنَّ الْمُسْدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَثُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ * سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّنَ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي

أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلُ أَنْ تُبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٩) .

وعندما يتبع الإنسان الهوى ويخرج عن توجيه العقل ، يوجد الاختلاف بسبب عدوان أصحاب الهوى على الناس والكون والتناقض بين المصالح والارادات ، والتنافس غير الشريف على الجاه والسلطة والشهوات بين الناس .

ويبدو من القرآن الكريم أنّ هذا النوع من الاختلافات هو أول الأنواع التي ظهرت في التاريخ الانساني ، والتي توقعها الملائكة من خلال طبيعة خلق هذا الإنسان كما يتحدث القرآن الكريم :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (٢٠) .

الاختلاف بسبب العقائد

لما برز الاختلاف بسبب الهوى ، اقترن ذلك بتطور الحياة الانسانية ووجود التعقيد والتركيب فيها ، وأصبح الإنسان عاجزاً أن يقوم بمفرده ومن خلال عقله وفطرته عن حلّ المشكلات الصعبة والعميقة في حياته ، عندئذ حدث تطور جديد في الحياة الانسانية ، حيث تفضّل الله سبحانه على عبادة بانزال الكتب والرسالات السماوية وارسال الأنبياء ليرشدوا هؤلاء الناس الى طريق الهدى والصلاح ، وليحكموا في الخلافات والنزاعات بينهم بالحق والعدل ، كما تؤكد على ذلك آية سورة البقرة السابقة وغيرها من الآيات :

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ ...) (٢١) .

وقد كان لهذا التطور الجديد أن يرتقي بالحياة الإنسانية في فهمها للحياة وللكون ، وفي تشخيص معالم الفطرة في النفس الإنسانية وتوضيحها ضمن صيغ وقوانين محددة ، كما تمّ

(١٩) الحديد : ١٨ - ٢٣ .

(٢٠) البقرة : ٣٠ .

(٢١) البقرة : ٢١٣ .

تشخيص مواضع القسط والعدل والظلم والجور، ومعالم الصلاح والفساد ، والخير والشر ،
والحسنة والسيئة ، والمعروف والمنكر ، والاختلاف بجانبه المحمود والمذموم ، كما
توضحت سبل وأساليب الارتباط بالله تعالى وعبادته وحمده وشكره وتسبيحه وتقديسه ، كل
ذلك من خلال الرسائل السماوية .

وفي مقابل هذا التطور الجديد والضروري الذي يمثل الرحمة الإلهية ، تطوّر الامتحان
والاختيار لهذا الإنسان متناسقاً مع درجة التكامل الجديدة التي أخذ يواجهها هذا الإنسان ،
فحدث نوع جديد من الاختلاف ، وهو الاختلاف في العقائد الإلهية ، من خلال تأثير الهوى
في الإنسان حيث سيطر على سلوك بعض الناس وتحول الى اله يُعبد من دون الله ، فأنحرف
هذا الإنسان عن فطرته التي اختلفت تحت ركام السيئات والذنوب والانحرافات والآثام
والشهوات ، الأمر الذي أدّى الى التمرّد على الله ، ورفض الإنسان الاستماع الى نداءات
الرسل والأنبياء في التوحيد الالهي ، أوفي الايمان بالوحي والرسالة ، أو الايمان بالمعاد
والنشور ، وحتى النداءات الاخلاقية والاصلاحية للمجتمع وللإنسان ، وفي تحقيق العدل
والقسط ، وقد أشار القرآن الكريم الى هذا التحول في الأوضاع الإنسانية ، وهذا النوع من
التمرّد في مثل قوله تعالى :

(أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَّمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ
يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ
بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (٢٢) .

وتمثل سورة نوح (عليه السلام) صورة رائعة عن هذا التطور والمواجهة التي حصلت في
بدايات هذا التحول في التاريخ البشري كما يظهر :

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا
أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ
لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً) (٢٣) .

كما أشار القرآن الكريم في مواضع عديدة الى هذا النوع من الاختلاف بشكل عام في
الآية ٢١٣ من سورة البقرة السابقة ، وفي مثل قوله تعالى :

(٢٢) الجاثية : ٢٣ - ٢٤ .

(٢٣) نوح : ٥ - ١١ .

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْغِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (٢٤) .

(تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (٢٥) .

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (٢٦) .

ولعلَّ هذا النوع من الاختلاف هو الذي أشار اليه إبليس في محاورته مع الله سبحانه وتعالى ، وتوعده للانسان تعبيراً عن الحالة التي كان عليها إبليس في موقفه من السجود لآدم ، وتمرده على الله تعالى حيث انطلق في ذلك من الهوى والأنا والشعور بالتميز الذاتي على آدم (عليه السلام) :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) (٢٧) .

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لَاسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) (٢٨) .

وفي تطور آخر الى جانب الاختلاف العقائدي بدا سبب آخر للاختلاف ينطلق من الهوى أيضاً ، وهو الاختلاف بسبب الجهل والطغيان ، وتحول بعض الممارسات السلوكية الى عادات ثابتة أوتقاليد مقدسة لوراثةها عن الآباء والأجداد ، وبفعل الاجتهادات والتغيرات القائمة على الهوى والأغراض الشخصية ، أو الظنون والأوهام ، الأمر الذي أدّى الى انقسام الناس الى جماعات متعصبة وأحزاب متفرقة ، يقتل بعضهم البعض الآخر ، ويشرده من دياره ، أو يستعبده ويستغله من أجل مصالحه وحاجاته وارضاء لرغباته وشهواته :

(٢٤) آل عمران : ١٩ .

(٢٥) النحل : ٦٣ - ٦٤ .

(٢٦) الشورى : ٧ - ٨ .

(٢٧) الأعراف : ١١ - ١٣ .

(٢٨) الحجر : ٢٨ - ٣٣ .

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (٢٩) .
(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (٣٠) .

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (٣١) .

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (٣٢) .
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) (٣٣) .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (٣٤) .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (٣٥) .

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (٣٦) .

وهناك المئات من الآيات الكريمة التي تناولت معالم الفساد والانحراف في العقائد والسلوك والاجتهادات ، وتحدثت عن مفردات الهوى وزخارف الدنيا وآثارها في الحياة الإنسانية .

(٢٩) الروم : ٤١ .

(٣٠) القصص : ٤ .

(٣١) آل عمران : ٧ .

(٣٢) البقرة : ٧٨ .

(٣٣) المائدة : ٩٠ - ٩١ .

(٣٤) البقرة : ١٧٠ .

(٣٥) المائدة : ١٠٤ .

(٣٦) الأنعام : ١٥٩ .

وقد شرع الإسلام الدعوة الى الله ، والبلاغ بالهدى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهد في سبيل الله لمواجهة هذه الأنواع من الاختلافات بحسب مستوياتها وطبائعها ، كما تنص على ذلك الآيات الكريمة الكثيرة .

(فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) (٣٧) .

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبَنَسَ الْمَصِيرُ) (٣٨) .

(وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (٣٩) .

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (٤٠) .

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (٤١) .

وقد أكد القرآن الكريم ان الله سبحانه وتعالى من أجل تنبيه الناس ووعظهم في الحياة الدنيا للقضاء على أسباب الاختلاف وفتح طريق التكامل أمام مسيرة البشرية على المستوى الفردي والعالمي وضع قانونين آخرين :

أحدهما : قانون الاستغفار والتوبة والانابة والعفو ، ليكون أمام الإنسان فرصة الرجوع عن أخطائه وذنوبه حيث يتكامل بهذه التوبة ، ويتفضل عليه الله عز وجل بالمغفرة .

ثانيهما : قانون الانتقام الدنيوي للجماعات عندما تتفاقم حالة الانحراف وتزايد الذنوب والجرائم والسيئات ، ليكون هذا الانتقام عبرة للأجيال القادمة والأمم الآتية .

ومن هنا نجد القرآن الكريم يؤكد على هذين القانونين سواء في العطاء النظري والفكري أوفي قصص الانبياء والاقوام ، من أجل معالجة هذه الاسباب وتوضيح الرؤية والطريق للناس في طريق الكمال ، قال تعالى :

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) (٤٢) .

(٣٧) الفرقان : ٥٢ .

(٣٨) التحريم : ٩ .

(٣٩) آل عمران : ١٠٤ .

(٤٠) التوبة : ٧١ .

(٤١) الاعراف : ١٥٧ .

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (٤٣) .

(فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ) (٤٤) .

(وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَانَتْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا أَنْ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ لَنُتَمُودَ) (٤٥) .

(قَالُوا يَا لَوُطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ * مُسَوَّمَةٍ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) (٤٦) .

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) (٤٧) .

كما حدّد القرآن الكريم المعالم الاساسيّة التي يمكن أن تقوم عليها وحدة المجتمع البشري في نهاية المطاف ، حيث ستصل مسيرة البشرية الى هذا الهدف في أواخر أيامها الدنيويّة كما وعد الله سبحانه وتعالى بذلك .

وسوف نتحدث عن هذه الاسس التي تقوم عليها الوحدة في نظر القرآن الكريم في الفصل الآتي عند الحديث عن الوحدة في المجتمع الإسلامي .

الاختلاف والوحدة بين الديانات الإلهيّة

من الواضح من خلال النظريّة القرآنيّة أن فكرة الوحدة لا بد لها من قاعدة ووسائل ، كما سوف نتحدث عن ذلك في الفصل الآتي . ولكن هنا لابدّ أن نشير الى أنّ الوحدة بين أبناء البشر يمكن أن تتحقق فيما إذا كان هناك قاسم مشترك رئيسي يكون منطلقاً لهذه الوحدة ،

(٤٢) النساء : ١٧ .

(٤٣) آل عمران : ١٣٥ .

(٤٤) يونس : ٧٣ .

(٤٥) هود : ٦٧ - ٦٨ .

(٤٦) هود : ٨١ - ٨٣ .

(٤٧) هود : ١٠١ - ١٠٢ .

ومقبولاً في العمل من أجل الوحدة، ومن وجهة نظر القرآن الكريم يمكن تحديد هذا القاسم المشترك على مستوى البشرية على أساس الأمرين التاليين :

الأول : الايمان بالله تعالى والوحي والرسالات واليوم الآخر .

الثاني : القبول بالعزّة والكرامة الانسانية والاحترام للإنسان وحرّيته في العقيدة والفكر والعمل .

ولذا فلا مجال للوحدة في نظر القرآن الكريم بين المؤمنين والكافرين في مجتمع واحد حقيقي ، فقد يجمعهم مكان واحد ووطن واحد وتكون بينهم (الهدنة) ، ولكنهم لا يمكن أن يكونوا مجتمعاً واحداً من وجهة نظر الإسلام ، فلا يمكن في الوحدة التنازل عن هذا الأمر ، لأنّ الشرك ظلم عظيم، ويغفر كلّ ذنب دونه ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا) (٤٨)

وبالتالي فهو يمثل حاجزاً نفسياً وتناقضاً اجتماعياً وظلماً لا يمكن التجاوز عنه ، بل يمثل التمزق والاختلاف بين الناس على أساس التعدد في التدبير ، بخلاف التوحيد الذي يمثل الوحدة الحقيقية في الكون والمجتمع .

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرُ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (٤٩) .

ولا شك أنّ هذا الموقف الذي يذكره القرآن لابراهيم وأتباعه من أجل التأسّي به ، يجسد هذه النظرة القرآنية للوحدة ، ولكنّه موقف انّما يتم اتخاذه بعد إقامة الحجة والبلاغ بالحكمة والموعظة الحسنة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (٥٠) .

كذلك لا مجال للوحدة في نظر القرآن بين الطغاة والمساكين والمتجبرين والمستضعفين والظالمين والمظلومين في مجتمع واحد حقيقي ، فقد يجمعهم - أيضاً - مكان واحد ووطن

(٤٨) النساء : ٤٨ .

(٤٩) الممتحنة : ٤ .

(٥٠) التوبة : ٢٣ .

واحد ، ولكنهم ليسوا مجتمعاً واحداً في نظر الإسلام ، بل يتحول المجتمع الى مجتمع متمزق ومتفرد في واقعة :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (٥١) .

بل إنَّ الإسلام فرض القتال على المستضعفين عندما يكونون قادرين على ذلك ، والقتال هو النزاع والاختلاف والفرقة :

(اذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (٥٢) .

(وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا) (٥٣) .

ومن هذا المنطلق نجد القرآن الكريم عالج بشكل خاص قضية الوحدة والاختلاف بين المسلمين وأهل الكتاب (أهل الديانات الإلهية) ، باعتبار توفر القاسم المشترك بينهما ، فإنَّ القرآن الكريم في البداية دعا أهل الكتاب الى دين الحق وهو الإسلام ، وحثهم على الدخول فيه :

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (٥٤) .

معالجة أسباب الانحراف عند أهل الكتاب

(٥١) القصص : ٤ .

(٥٢) الحج : ٣٩ - ٤٠ .

(٥٣) النساء : ٧٥ .

(٥٤) المائدة : ١٥ - ١٦ .

وقد حاول القرآن الكريم أن يعالج مجمل الانحرافات وأسباب الاختلاف التي كانوا عليها ، خصوصاً قضية الشرك بالله تعالى ، ونقضهم للمواثيق ، وذلك من أجل توحيدهم في دين واحد وجعلهم أمة واحدة :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ * لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ فَعْلُوهِ لِبُئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبُئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) (٥٥) .

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأَمَةٌ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (٥٦) .

(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ) (٥٧) .

ويمكن تلخيص أهم هذه الأسباب بالنقاط التالية :

١ - الانحراف في العقيدة من خلال الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء والغلو في العقيدة ، كنسبة الولد الى الله أو تصور أن الله ثالث ثلاثة أو أن يد الله مغولة أو اتخاذ الرهبان والأحبار أرباباً من دون الله أو غير ذلك من الموارد التي أشار اليها القرآن الكريم .

٢ - التمسك والتعصب للأسماء والشعارات بعيداً عن الالتزامات العملية والسلوكية كقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه وزعمهم أنهم أولياء الله الذين لا يتعرضون الى العذاب والمؤاخذه ، لتمسكهم بهذه الديانات :

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (٥٨) .

(٥٥) المائدة : ٧٧ - ٨١ .

(٥٦) المائدة : ١٧ .

(٥٧) المائدة : ٧٠ .

(٥٨) المائدة : ١٨ .

٣ - نقض المواثيق والعهود التي أخذها الله عليهم في الايمان به ، والدفاع عن الحق والمظلومين ، وفي التصديق بالنبي الأمي العربي ، قال تعالى :

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) (٥٩) .
(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ) (٦٠) .

٤ - الاهتمام بالمناصب والمواقع الاجتماعية وجمع الأموال عن طريق المتاجرة بالدين وآيات الله وكلماته ، قال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ) (٦١) .

(ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتِيَكُمُ اسْمَارَىٰ تَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) (٦٢) .

٥ - تأويل النصوص الدينية وتفسيرها حسب الأهواء والآراء والأمانى ، وعن طريق الاجتهادات الخاطئة البعيدة عن العلم واليقين والاعتماد على الظن والوهم ، قال تعالى :

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنَّهُمْ لَا يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ) (٦٣) .

إطار الوحدة بين الديانات الإلهية

(٥٩) آل عمران : ٨١ .

(٦٠) آل عمران : ١٨٧ .

(٦١) البقرة : ١٧٤ - ١٧٥ .

(٦٢) البقرة : ٨٥ - ٨٦ .

(٦٣) البقرة : ٧٨ - ٧٩ .

وقد وضع القرآن الكريم اطاراً للوحدة بين التأريخ والديانات الإلهية الى جانب محاولته لمعالجة مجمل الانحرافات التي أصابت الأمم والجماعات التي آمنت بهذه الرسالات ، وذلك من أجل إبقاء العلاقة النفسية والروحية بين المسلمين وأتباع هذه الديانات ، وتهيئة الأرضية للتعايش الاجتماعي والسياسي بين هذه الديانات من ناحية ، وإيجاد صف واحد للمؤمنين بالله واليوم الآخر في مواجهة قوى الوثنية والشرك والالحاد .

ويمكن أن نجد معالم هذا الاطار وأبعاده في النقاط التالية :

النقطة الأولى : الايمان بالله الواحد ، والوحي الالهي واليوم الآخر ، والكتب والرسالات ، حيث يمثل هذا الايمان الأساس المشترك لهذه الديانات كلها .

وبالرغم من الاشارات القرآنية الى وجود الانحراف عن هذا الأصل في بعض هذه الديانات ، بحيث عبّر عنه القرآن الكريم بالكفر ، ولكن يبدو أنّ تقويم القرآن الكريم لهذا الكفر والشرك لم يكن بالدرجة التي تؤدي الى القطيعة والانفصال ولعلّ ذلك - والله أعلم - ينطلق من أنّ هذا النوع من الكفر والشرك ليس بالدرجة العالية من الانحراف ، لأنه كفر وشرك يرتبط بتصور الذات الالهية تصوراً منحرفاً ، أو الغلو في فهم بعض أفراد الأنبياء ، والصعود بدرجاتهم الى مستوى يجعلهم يمثلون امتداداً لله الواحد نفسه ، كما يبدو ذلك في تصور بعض طوائف النصارى للمسيح وأمه بحيث تصبح الذات الإلهية ذات أبعاد ثلاثة ، أو مراحل ثلاثة ، تشبه المراحل التي تمرّ بها بعض الموجودات البشرية أو المادية (الأب والابن وروح القدس) :

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ) (٦٤) .

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ غَيْرُ ابْنِ اللَّهِ) (٦٥) .

(وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ) (٦٦) .

ويبدو أنّ القرآن الكريم لم يستخدم كلمة «الشرك» و«المشركين» من أهل الكتاب ، بل وضع «الذين كفروا» في مقابل أهل الكتاب بالرغم من انتقاد القرآن الشديد لأهل الكتاب أحياناً ، ووضعهم الى صفّ المشركين في إدانتهم ، والمصير الذي سوف ينتهون اليه أحياناً أخرى .

(٦٤) المائدة : ٧٣ .

(٦٥) التوبة : ٣٠ .

(٦٦) التوبة : ٣٠ .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ) (٦٧)

كما أنه قرنهم بالمشركين في أول السورة .

(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ

مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (٦٨) .

ويبدو من سياق الآيات في بعض الموارد كما في الآية السابقة وغيرها، ومن التصريح في بعض الموارد الأخرى وجود الفرق بين أهل الكتاب أنفسهم من اليهود والنصارى ، حيث اصطفى اليهود الى جانب ، فكانوا أشد الناس عداوةً وايداءً للمسلمين ، شأنهم في ذلك شأن المشركين ، على خلاف النصارى الذين فيهم القسيسون والرهبان :

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا

إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) (٦٩) .

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ

قَائِمًا ذَلِكَ بَأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّيْنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (٧٠) .

(وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (٧١) .

وبعد أن يستعرض القرآن الكريم مواقف طوائف أهل الكتاب وانحرافاتهم وما يجب على

المسلمين من مواقف تجاههم يختم هذا المقطع بقوله تعالى :

(لَيْسُوا سَوَاءً مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَانِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ

خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ) (٧٢) .

وانطلاقاً من هذا التصور نجد القرآن الكريم يدعو أهل الكتاب الى كلمة التوحيد

باعتبارها الكلمة الجامعة والتي تمثل القاسم المشترك بينهم وبين المسلمين .

(٦٧) البينة : ٦ .

(٦٨) البقرة : ١٠٥ .

(٦٩) المائدة : ٨٢ - ٨٣ .

(٧٠) آل عمران : ٧٥ .

(٧١) آل عمران : ٦٩ .

(٧٢) آل عمران : ١١٣ - ١١٥ .

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (٧٣) .

كما نلاحظ القرآن الكريم يضع أهل الكتاب بأصنافهم المتعددة في صف واحد مع المسلمين في النهايات ، وذلك انطلاقاً من هذه الرؤية الواقعية، والتميز بين بعضهم والبعض الآخر ويضع قضية الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح أساساً لذلك .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (٧٤) .

ومثلها في اللفظ وفي المعنى مع اختلاف بسيط الآية الكريمة : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (٧٥) .

النقطة الثانية : التأكيد على وحدة الرسل والرسالات ، فالأنبياء وما جاءوا به من الوحي إنما هو من مصدر واحد ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وهم يتحملون مسؤولية من نوع واحد وهي مسؤولية بلاغ رسالات الله ، واصطلاح البشر ، ودعوتهم الى الخير والهدى والصالح ، وتحذيرهم من الشر والضلال والفساد وكذلك قيامهم بين الناس بالعدل والقسط وحل الاختلاف بالحق من خلال الحكم الالهي ، لا بالهوى والميول والرغبات وقد أكد القرآن الكريم هذه الوحدة بأساليب متعددة : فتارةً يصرح بها من خلال استعراض مسيرة الأنبياء ودعواتهم وبعد بيان أعمال مجموعة منهم ثم يختم ذلك بقوله تعالى : (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون) (٧٦) .

وكذلك قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون) (٧٧) .

وأخرى : بأسلوب تأكيد وحدة مضمون دعوة الأنبياء المتعديدين عند استعراض رسالتهم الى أقوامهم ، كما نلاحظ ذلك في عدة سور قرآنية كالشعراء ، وثالثة بالاشارة الى أن العقيدة

(٧٣) آل عمران : ٦٤ .

(٧٤) البقرة : ٦٢ .

(٧٥) المائدة : ٦٩ .

(٧٦) الانبياء : ٩٢ .

(٧٧) المؤمنون : ٥١ - ٥٢ .

الإسلامية الصحيحة هي عدم التفريق بين الرسل ، والايان بهم جميعاً مع احترامهم ،
والانكار على من يفرق بين هؤلاء الرسل لأنهم جميعاً هم رسل الله تعالى :

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلَأْنِيهِ وَكُتِبَ لَهُمْ مِنْهُمُ لَئِنْ لَمْ يَفْرُقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ
رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (٧٨) .

(قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ
مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَتَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (٧٩) .
وكذلك قوله تعالى :

(لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ
وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً * إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى
نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ
وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ
مُوسَى تَكْلِيماً * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً) (٨٠) .

ورابعة من خلال التركيز في الحديث على الأنبياء المعروفين لدى أوساط أهل الكتاب
وقصصهم كآدم ونوح وإبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وداود وسليمان وزكريا وعيسى
وغيرهم .

النقطة الثالثة : الدعوة الى تطبيق الأحكام الالهية المشتركة الثابتة في التوراة والانجيل ،
ليتضح مدى التقارب والوحدة بين هذه الأديان ، خصوصاً وانّ هذه التشريعات يكمل بعضها
البعض الآخر ، حيث نجد القرآن الكريم يتناول هذا الموضوع بأساليب متعددة :
أ - أشار الى الأحكام التي كانت ثابتة في الديانات السابقة كما تمّ ذلك في الصوم
والقصاص والربا وغيرها ، قال تعالى :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (٨١) .

(٧٨) البقرة : ٢٨٥ .

(٧٩) البقرة : ١٣٦ .

(٨٠) النساء : ١٦٢ - ١٦٥ .

(٨١) البقرة : ١٨٣ .

(وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (٨٢) .

(وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (٨٣) .

ب - المطالبة بالرجوع الى التوراة والانجيل في فصل الاختلافات التي تواجه أهل الكتاب ، وتشخيص الاحكام المقارنة بينها وبين ما هو موجود في التوراة والانجيل .

(كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (٨٤) .

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيُزِيدَنَّا كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (٨٥) .

(وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) (٨٦) .

(وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (٨٧) .

ج - اسلوب الدعوة الى أهل الذكر والمعرفة من علماء أهل الكتاب لتبيين الحقائق التي جاء بها الإسلام بعد تذكيرهم بها ، قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (٨٨) .

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (٨٩) .

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أَنزَلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (٩٠) .

(٨٢) المائدة : ٤٥

(٨٣) النساء : ١٦١ .

(٨٤) آل عمران : ٩٣ .

(٨٥) المائدة : ٦٨ .

(٨٦) المائدة : ٤٣ - ٤٤ .

(٨٧) المائدة : ٤٧ .

(٨٨) النحل : ٤٣ .

(٨٩) الانبياء : ٧ .

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)^(٩١) .

النقطة الرابعة : الدعوة الى التسليم والقبول بالرسالة الاسلامية واصولها الإلهية ، واحترام النبي الأُمي العربي المتمثل برسول الله (صلى الله عليه وآله) حيث إنّ الإسلام يعترف بشكل طبيعي بالرسالات السابقة والأنبياء السابقين ، وبالتالي باقوامهم وأتباعهم الذين آمنوا بهم ، وباعتباره الرسالة الخاتمة فلا بدّ له من تصديق الرسالات السابقة في الوقت الذي يمثل الهيمنة عليها ، واكمالها وتصحيح الانحرافات التي طرأت عليها من خلال التراكم الزمني والتاريخي، والرواسب والمخلفات الاجتماعية والقومية ، والانحطاط الأخلاقي .

وقد توسل القرآن الكريم الى هذه الدعوة بأساليب متعددة أيضاً :

أ - ارجاع الإسلام الى الأصل الابراهيمي ، والتأكيد على موقع إبراهيم (عليه السلام) في الرسالة الإسلامية ، باعتباره أب الأنبياء الاسرائيليين والنبي الذي تلقت به الرسالات السماوية ، ومن هنا جاء التأكيد على أنّ اسم الإسلام كان من ابراهيم(عليه السلام) وانه كان مسلماً حنيفاً ، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً .

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)^(٩٢) .

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)^(٩٣) .

ب - دعوة أهل الكتاب للاعتراف بالنبي ورسالته من خلال التأكيد على بشارة الأنبياء والكتب السماوية به ، حيث تمت الإشارة في القرآن الكريم الى هذه الحقيقة في عدة موارد ، منها ما ورد في سورة الأعراف في سياق الحديث عن موسى ودعائه الله تعالى وجوابه تعالى له : (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءَ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ

(٩٠) الاعراف : ١٥٧ .

(٩١) البقرة : ١٤٦ .

(٩٢) الحج : ٧٨ .

(٩٣) آل عمران : ٦٥ - ٦٧ .

الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (٩٤) .

ومنها : ما ورد في سورة الصف من قوله تعالى على لسان عيسى بن مريم بعد الإشارة الى موقف قوم موسى وقوم عيسى منهما (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) (٩٥) .

ومنها : ما ورد في سورة البقرة من قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) (٩٦) .

ومنها : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) (٩٧) .

ج - مناقشة الافكار المختلفة والمهمة عند أهل الكتاب وارجاعها الى أصولها الصحيحة وتذكيرهم بما يخفون من الكتاب كما هو الحال في فكرة تولد المسيح من غير أب التي كانت سبباً لاثارة الاتهام تجاهه عند اليهود ، والاعتقاد بأنه تجسيد للاله عند النصارى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) (٩٨) .

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (٩٩) .

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (١٠٠) .

(٩٤) الاعراف : ١٥٦ - ١٥٩ .

(٩٥) الصف : ٦ .

(٩٦) البقرة : ٨٩ .

(٩٧) آل عمران : ٨١ .

(٩٨) المائدة : ١٥ .

(٩٩) آل عمران : ٥٩ .

وكذلك فكرة أنَّ اليهود والنصارى هم أبناء الله وأحباؤه وانهم لا يتعرضون للعذاب والعقاب :

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (١٠١) .

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (١٠٢) .
وكذلك فكرة الفقر والبخل الالهي التي كان يقول بها اليهود (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) (١٠٣) .

(لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بَقْرَبَّانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (١٠٤) .

النقطة الخامسة : الاعتراف بالوجود الديني والاجتماعي لأصحاب هذه الديانات ضمن المجتمع الإسلامي على مستوى علاقات المواطنة
أو العلاقات الاقتصادية أو علاقات الاسرة والروابط الاجتماعية ، كما تدل على ذلك بعض الآيات الكريمة ، ويؤكدته التعامل السياسي في الدولة الإسلامية ، واتفاقيات المواطنة التي تسمى بالخيرية ، وابقاء وجودهم الديني من المعابد والشعائر الدينية ، والأحكام في الاصول الشخصية ، وكذلك ابقاء الاراضي المفتوحة عنوة في أيديهم ، وفتح الأبواب لهم في مختلف المجالات الاقتصادية والعلمية والثقافية ، ومن الآيات التي تناولت هذا الموضوع هي آيات الجزية :

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) (١٠٥) .

(١٠٠) المائدة : ١٧ .

(١٠١) المائدة : ١٨ .

(١٠٢) الجمعة : ٦ .

(١٠٣) المائدة : ٦٤ .

(١٠٤) آل عمران : ١٨١ - ١٨٣ .

(١٠٥) التوبة : ٢٩ .

فانّ هذا الاستثناء لا يشمل المشركين ولا غيرهم من الملحدين المرتدين، خصوصاً وأنها جاءت في سياق البراءة من المشركين: (الْيَوْمَ أَحْلَلْ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ حَلًّا لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلًّا لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (١٠٦).

فانّ هذه الآية تشير الى العلاقات التجارية في قوله تعالى: (وَطَعَامُكُمْ حَلًّا لَهُمْ)، وكذلك الى العلاقات الزوجية خصوصاً اذا قارناها بالموقف من المشركين في قوله تعالى: (وَلَا تُمَسِّكُوا بَعْضَ الْكُوفِرِ) (١٠٧)، (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَامَةَ مُؤْمِنَةٍ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ) (١٠٨). كما يؤكد القرآن في بعض الآيات على الجانب الروحي والعاطفي الموجود في أوساط بعض أهل الكتاب كالنصارى، كما أشرنا الى ذلك في آية سورة المائدة، وكما في قوله تعالى:

(ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَائِثِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) (١٠٩).

انّ هذه النقاط الخمس التي ذكرناها ووضعنا بعضها الى جانب الآخر، وجدنا أنّ القرآن الكريم في الوقت الذي كان يسعى الى تصحيح انحرافات أهل الكتاب، ودعوتهم لدخول الإسلام والالتزام بدين الحق... في نفس الوقت كان يسعى أيضاً لايجاد صف واحد من المؤمنين بالله والوحي والرسالات واليوم الآخر، ليكونوا في مواجهة صف الشرك والوثنية والالحاد، ولو لا موقف يهود الجزيرة العربية من ناحية وموقف الطغاة الحاكمين في أوساط النصارى والمجوس، لوجدت هذه الدعوة آذاناً صاغية في أوساط أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس والصابئة.

(١٠٦) المائدة: ٥.

(١٠٧) الممتحنة: ١٠.

(١٠٨) البقرة: ٢٢١.

(١٠٩) الحديد: ٢٧.

ويؤكد هذا الفهم التعاطف النفسي والروحي الذي كان يشعر به المسلمون تجاه أهل الكتاب، وخصوصاً النصارى منهم كما تشير الى ذلك القصة التي تشير اليها الآية في أول سورة الروم:

(الم * غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ...) (١١٠) حيث يذكر التاريخ أنّ المشركين أظهروا الشماتة وأثاروا الشبهات حول الإسلام، عندما تعرّض الروم الى هزيمة على أيدي الفرس، حيث كانوا يصتفون الى جانب الوثنيين لعبادتهم النار بخلاف الروم النصارى، وكذلك القصة التي تحدثنا عن موقف ملك الحبشة تجاه المسلمين ورفضه لطلب المشركين تسليم المسلمين اليهم، وبعد ذلك الرعاية الخاصة التي وجدها المسلمون في الحبشة، كما يؤكّد ذلك تعايش أهل الكتاب بشكل عام، وخصوصاً النصارى، فهم مع المسلمين في مختلف أدوار الدولة الإسلامية وأقطارها، بحيث كانت تتم الرعاية لهم والتعايش معهم أحياناً أكثر من رعاية بعض فرق المسلمين المعروفة.

وهذا الفهم يعرض علينا في هذا العصر موقفاً سياسياً وثقافياً واجتماعياً تجاه أهل الكتاب، وخصوصاً النصارى منهم في العالم المسيحي والكنائس المختلفة المتعددة، وضرورة التمييز بين الموقف الاستعماري أو الصليبي لهذا العالم والحقيقة الدينية والثقافية، وبالتالي السعي الى تبيين القواسم المشتركة، ومعالج الوحدة الحقيقية، كما صنع القرآن الكريم ذلك في الصدر الأول، فانه لم يخلط بين المواقف الحاقدة لبعض أهل الكتاب وكذلك الانحرافات العقائدية والاخلاقية والسياسية، والمواقف المتعاطفة والأفكار المشتركة. ويمكن الانطلاق في ذلك من منطلقين واقعيين في هذا العصر:

الأول: منطلق الايمان بالله والقضية الروحية والمعنوية التي تمثل قضية مشتركة.
الثاني: قضية حقوق الإنسان، حيث جاء الإسلام بالكثير من هذه الحقوق، بل تقدم البشرية في مجال طرحها والاهتمام بها وتطويرها وكانت الرسالة الاسلامية دعوة عالمية ذات طابع سياسي انساني جهادي لاحقاق هذه الحقوق.

الفصل الثاني

الوحدة في المجتمع الإسلامي

بعد أن تناولنا في البحث السابق ظاهرة الاختلاف والوحدة في التاريخ الانساني، وتفسير القرآن الكريم لهاتين الظاهرتين وأسبابها وكيفية معالجتهما انسانياً، يحسن بنا أن نتناول موضوع الوحدة والاختلاف في المجتمع الإسلامي، وفي ظل العقيدة الإلهية. وبهذا الصدد سوف نتناول هذا الموضوع من خلال الأبعاد الثلاثة التالية:

١- الاسس التي وضعها القرآن الكريم لوحدة المجتمع الإسلامي، بحيث تقوم هذه الوحدة وتثبت اذا توفرت هذه القواعد والأركان الأساسية لها.

٢- الوسائل التي استخدمها القرآن الكريم، ووضعها أمام النبي (صلى الله عليه وآله) وبني الإنسان، والتي تضمن بقاء هذا البنيان الالهي واستمراره والمحافظة عليه، وصيانتة وتحقيقه.

٣- النتائج والآثار التي تترتب على قيام الوحدة وتحقيقها في المجتمع الإسلامي.

البعد الأول: أسس الوحدة الإسلامية

من خلال مراجعة سريعة للقرآن الكريم، تظهر أمامنا مجموعة من الاسس والمنطلقات الرئيسية للوحدة في المجتمع الإسلامي.

الأساس الأول: عقيدة التوحيد

إنّ الايمان بالاله الواحد وما يستلزمه من الايمان بالغيب والملائكة والكتب والانبياء واليوم الآخر، يمثل أهم الاسس التي تقوم عليها الوحدة في المجتمع الإسلامي، لأن نظرية التوحيد هي نظرية وحدوية، بعد أن يكون مركز النظام التكويني والتشريعي هو الأمة

الواحدة، كما أنّ الناس والمخلوقات جميعاً تخضع وتسبّح بحمد هذا الاله الواحد، وهو الذي يملك يوم الدين والجزاء من ثواب وعقاب، ويأخذ للمظلوم ظلامته، وينتقم من الظالم، ويحقق الميزان والقسط بين الناس، من خلال اليوم الآخر.

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (١١١).

(شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) (١١٢)

ومن هذا المنطق نجد القرآن الكريم، أكد على هذا المفهوم في تصويره للوحدة بين المسلمين، ووضع صورتها في هذا الاطار، اذ ليس المهم في نظر القرآن الكريم والإسلام هو مجرد اجتماع المسلمين واتفاقهم على شيء أو أشياء، بل المهم أن تكون هذه الوحدة والاتفاق في الله ومن أجل الله وفي سبيل الله.

ويمكن أن نلاحظ ذلك جلياً في المشاهد القرآنية التالية:

أ - مشهد الوحدة من خلال اعتصام جميع المسلمين بحبل الله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ* وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ...) (١١٣)

وهذا المشهد يؤكد مشهد آخر وهو التمسك بالعروة الوثقى: (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (١١٤).

ب - مشهد تأليف القلوب وانسجامها بعضها مع البعض الآخر، من خلال العامل الغيبي المتمثل بالنعمة الالهية والتأييد والنصر الربّاني.

(وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) (١١٥).

ويؤكد القرآن الكريم هذا الحقيقة عندما يشير الى الأوضاع الجاهليّة التي كان عليها الناس، بحيث كان من المستحيل اجتماعياً أن يتحقق هذا التآلف بالوسائل الماديّة:

(وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ* وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (١١٦).

(١١١) الانعام: ١٥٣.

(١١٢) الشورى: ١٣.

(١١٣) آل عمران: ١٠٢-١٠٣.

(١١٤) البقرة: ٢٥٦.

(١١٥) آل عمران: ١٠٣.

ج - مشهد الأمة الواحدة، بالرغم من اختلاف أزمنتها وتاريخها ولغتها وأمكنتها، وترابطها في العقائد والمفاهيم والأهداف والغايات والوسائل، لأنها كانت تعبد الإله الواحد، وتؤمن بكتبه ورسالاته، كما نلاحظ ذلك في المشاهد التي يقدمها القرآن الكريم عن الأنبياء في مختلف العصور، ووحدتهم، وبالخصوص عندما يتحدث عنهم في سورة الأنبياء والمؤمنين، حيث ختم تلك المشاهد من رسالاتهم ومعاناتهم مع أقوامهم بقوله تعالى: (إنّ هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)^(١١٧)، (وإنّ هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون)^(١١٨).

حيث يتحدث القرآن بعد هذا المشهد عن حالة التقطيع الى الأحزاب والجماعات بدون هذا المبدأ الإلهي.

د - مشهد البراءة والعداوة والبغضاء بين أبناء الاسرة الواحدة والقوم الواحد، بسبب الكفر بالله تعالى وعدم الايمان به: (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير)^(١١٩).

وكذلك الآية الأخيرة من سورة المجادلة وهي قوله تعالى: (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الأيمان وأيديهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون)^(١٢٠).

الأساس الثاني: الطاعة للرسول (صلى الله عليه وآله)

تعتبر الطاعة للرسول والالتزام بأوامره وتعليماته وأحكامه، واتباع مواقفه وقراراته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والادارية والقضائية في الدرجة الثانية من حيث الأهمية في تحقيق وحدة المجتمع الإسلامي، فضلا عن الآثار الروحية والمعنوية التي تترتب عليها.

(١١٦) الانفال: ٦٢-٦٣.

(١١٧) الأنبياء: ٩٢.

(١١٨) المؤمنون: ٥٢.

(١١٩) الممتحنة: ٤.

(١٢٠) المجادلة: ٢٢.

وهذه «الأهمية» تنبع من مجموعة من العوامل والمنطلقات العقائدية والأخلاقية والمصالح السياسية والقضايا الاجتماعية، ويمكن أن نشير بهذه العجالة الى بعضها.

أ - انّ الرسول هو المبلّغ للرسالة، والناطق بالوحي الالهي (وما ينطق عن الهوى * ان هو إلا وحي يوحى...) (١٢١)، فتمثّل طاعته طاعة الله سبحانه وتعالى، والايمان به ايماناً بالرسالة الإلهية، فهو الخليفة الإلهية في الحياة المادية. (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا) (١٢٢).

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا) (١٢٣).

ب - انّ الرسول يمثل في النظرية الإسلامية جانب الامامة الى جانب النبوة والبلاغ، ومعنى ذلك أنّ طاعة الرسول تمثّل التزاماً في أحد جوانبها بالكيان السياسي الإسلامي، وهذا يعني أهمية الدور الذي يعطيه القرآن والإسلام للكيان السياسي في المجتمع، والذي يمكن الرسول من القيام بمجموع مهماته الأساسية في المجتمع الانساني، وبطبيعة الحال ينسحب هذا المبدأ على جميع الحالات الأخرى للكيان السياسي الإسلامي الشرعي:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا* وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا* فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّ أَرْدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا* أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا* وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا* فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (١٢٤).

(١٢١) النجم: ٣-٤.

(١٢٢) النساء: ٨٠.

(١٢٣) النساء: ٦٤.

(١٢٤) النساء: ٥٩-٦٥.

فإنّ هذا الآيات الكريمة تتحدث عن جانب الدولة في شخصية الرسول، وتذكر بشكل واضح بأنّ هذه الطاعة لها دور عظيم في توحيد المجتمع الإسلامي، وحل النزاعات والخلافات فيه.

كما تؤكد آيات أخرى عديدة تتناول قضية الاعمال السياسية المضادة للنظام الإسلامي، والتي يطلق عليها القرآن الكريم اسم «النفاق» وعلى القائمين بها «المنافقين»، أهمية الطاعة في معالجة تأثير هذه الحالة في تخريب وحدة المجتمع الإسلامي، سواء على مستوى ايجاد المناعة من وجود هذا المرض، أو مستوى مقاومته والقضاء عليه، حيث يصفهم القرآن الكريم بالصدود والاعراض والتولي:

(وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ تُعْرَضُوا وَلَنْ يُفْعَلُوا عَلَيْهِمْ لَنْ تُفْسِدُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةٍ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) (١٢٥).

ج - ان مجالات طاعة الرسول متحركة ومتعددة ومعقدة تتداخل فيها المصالح الاجتماعية العامة مع الاهواء الفردية الخاصة، والقضايا اليومية الآنية، مع القضايا ذات الطابع المستمر الثابت، بالإضافة الى مشاكل الأمزجة المتعددة، والآراء والاجتهادات المختلفة، والأوضاع النفسية والرواسب العقائدية والفكرية والأخلاقية، والمؤثرات والضغوط الاجتماعية والاقتصادية، هذه المجالات والامور التي تفرض المزيد من الاختلاف والتباين والتناقض والتضاد في المواقف، والتي لايمكن معالجتها إلا من خلال القوانين والضوابط، وأساليب الفصل والحكم أوالردع، وهذا انما يتحقق كله من خلال النظام والتشريعات المتحركة والمواكبة لحركة المجتمع وتفاعلاته، وهذا هو دور ولي الأمر والحكومة، حيث يمكن للقوانين أن توحد المجتمع الانساني وتحفظ تماسكه وتلاحمه.

ومن هذه المنطلقات نجد هذا التأكيد الواسع في القرآن الكريم على دور الطاعة للرسول بحيث قرنت في آيات كثيرة بطاعة الله تعالى، سواء على مستوى الأوامر الإلهية، أو على

مستوى الدعوة اليها من قبل الرسل أنفسهم، وارشادهم الناس عندما كانوا يدعونهم الى تقوى الله وطاعتهم (فاتقوا الله وأطيعون)^(١٢٦).

أعلى مستوى تقويم هذه الطاعة، وبيان قيمتها وأهميتها والآثار المترتبة عليها. وقد كان أحد الآثار المهمة لهذه الطاعة التي صرح بها القرآن الكريم، هو أنها تحقق الوحدة بين المسلمين، وتعالج أسباب الخلاف والنزاع، كما عرفنا ذلك في بعض الآيات السابقة، وكذلك في: (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم...) ^(١٢٧).

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعِلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا) ^(١٢٨).

الأساس الثالث: رعاية القيادة الإسلامية للأمة

إنّ المركز المهم الذي تتمتع به القيادة الإسلامية في المجتمع الإسلامي، يؤهل هذا المنصب القيام بدور كبير في تحقيق الوحدة بين المسلمين، لما عرفنا من أنّ هذا الموقع القيادي يمثل أحد الأسس الهامة في الوحدة الإسلامية، وفي الاطار والضوابط والقوانين التي تنتظم فيها هذه الوحدة، وحينئذ تصبح في غاية الأهمية رعاية هذا الموقع لهذه العلاقات وتحويلها من علاقات جامدة وجافة الى علاقات روحية وعاطفية تنسم بالطراوة والحب والمودة والمشاعر الانسانية الخيرة، حيث تكون قادرة على تحقيق آثارها في حفظ الوحدة واستمرارها وبقائها، وهذا ما أشار اليه القرآن الكريم بشكل واضح في بعض الآيات:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) ^(١٢٩)

ومن نجد القرآن الكريم يتحدث عن هذا الخلق العالي للرسول في قوله تعالى: (وانك لعلى خلق عظيم) ^(١٣٠)، وفي وصفه لرسول الله:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) ^(١٣١).

(١٢٦) آل عمران: ٥٠، الشعراء: ١٧٩، ١٦٣، ١٥٠، ١٤٤، ١٣١، ١٢٦، ١١٠، ١٠٨، الزخرف: ٦٣.

(١٢٧) الأنفال: ٤٦.

(١٢٨) النساء: ٨٣.

(١٢٩) آل عمران: ١٥٩.

(١٣٠) القلم: ٤.

(١٣١) التوبة: ١٢٨.

كما أنّ الله سبحانه أدّب رسوله بهذا النوع من الأدب الرسالي الذي يمكنه أن يحقق هذا الهدف:

(خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)^(١٣٢)

وعلم رسوله الاستغفار للمؤمنين كما علم المسلمين أنفسهم الطريق لهذه المغفرة، حتى تتطور هذه العلاقة بين الأمة والقيادة:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا)^(١٣٣)،
(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(١٣٤).

الأساس الرابع: الأخوة الایمانیة

إنّ الأخوة الایمانیة تمثل بنظر القرآن الكريم اطار الوحدة الإسلامية لأنها تعطي هذه الوحدة شكلها الاجتماعي وقيمتها الانسانية، لأنّ الوحدة بين الأشياء المتعددة تحتاج الى اطار واحد يجمعها فأما العرق والجنس أو اللغة والقوم، أو الجغرافيا والأرض والتراب، أو المصالح والمنافع، أو القيم والمثل الانسانية والنظرية القرآنية في هذا الاطار الواحد، تنطلق من هذا التصور الذي يقول: إنّ البشرية كلها من أصل واحد:

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى)^(١٣٥)

فهي متحدة في أصل وجودها، كما أنّ المجتمع الإنساني كان واحداً باعتبار وجود هذا الأصل له، وهذه العلاقة الرحمية: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ ...) ^(١٣٦).

والاختلاف بين بني الناس بسبب الظروف الحياتية والتعدد الشعبي والقبلي، إنّما هو اختلاف طارئ، يراد منه تنظيم الحياة الانسانية والاجتماعية: (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا)^(١٣٧)

(١٣٢) الاعراف: ١٩٩.

(١٣٣) النساء: ٦٤.

(١٣٤) النور: ٦٢.

(١٣٥) الحجرات: ١٣.

(١٣٦) البقرة: ٢١٣.

والاختلاف بسبب الأهواء وتنازع المصالح والمنافع وتدافع الغرائز والنزعات يمكن حله عن طريق الهدى والرسالات والنبیین، والمبشرين والمنذرين...

ومن خلال الالتزام بهذه الحلول والأحكام والشرائع والحدود يتميز الإنسان المصلح من المفسد، والحسنة من السيئة، (انْ أكرمكم عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ) (١٣٨).

كما أنَّ الاختلاف بسبب العقائد والدين، أو الشيطان والأوثان له مبرراته الواقعيّة التي تميّز الإنسان عن الإنسان الآخر، وتقسّم الناس الى صنفين حقيقيين: (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستون) (١٣٩).

وانطلاقاً من هذه النظرة كانت العلاقة الايمانية والأخوة الإسلامية: (انّ الدّين عند الله الإسلام) (١٤٠)، هي العلاقة التي تمثل الوحدة الحقيقيّة بين بني البشر جميعاً على اختلاف ألوانهم وألسنتهم وأقوامهم وقبائلهم وأماكن سكناهم، ومن هذا المنطلق نجد القرآن الكريم يقدّم هذا الاطار ضمن الأبعاد والخطوات التالية:

١- طرح مفهوم الأخوة الإسلاميّة بعيداً عن كل أسباب الفرق والاختلاف، غير الفرق والاختلاف على أساس التوحيد لله والالتزام بحدود الله وشرائعه:

(اتّما المؤمنون أخوة فأصلّحوا بَيْنَ أَخْوِيكُمْ) (١٤١)

(واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) (١٤٢)

(أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) (١٤٣)

وفي تحوّل علاقة العداء القائم بين المشركين والمسلمين الى حالة الأخوة بمجرد التوبة واقام الصلاة وإيتاء الزكاة: (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ * كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا

(١٣٧) الحجرات: ١٣.

(١٣٨) الحجرات: ١٣.

(١٣٩) السجدة: ١٨.

(١٤٠) آل عمران: ١٩.

(١٤١) الحجرات: ١٠.

(١٤٢) آل عمران: ١٠٣.

(١٤٣) الحجرات: ١٢.

لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ* كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وِلَايَةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ* اسْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَايَةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ* فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَآتُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٤٤)

ويبدو من مفهوم هذا الطرح، ومن بعض الاشارات القرآنية، أنَّ هذا الطرح يقوم على أساس الربط بين علاقتين واعطاء احدهما دور الأخرى وهما:

أ - العلاقة الإنسانية (التوالتية) ذات الطابع التعددي، وهي العلاقة بين الانسانين الذين يكونان من أب واحد أو من ام واحدة قريبين أو بعيدين، والتي هي أقوى رابطة انسانية بشرية بين متعددين يربطهما أصل واحد.

ب - العلاقة بين بني الإنسان التي تقوم على أساس الدين والمعتقد، والالتزامات والحدود الإلهية، التي جاءت بها الكتب والرسالات المنزلة.

فإنَّ القرآن الكريم لم يستخدم هذا المفهوم إلا في هذين الصنفين من العلاقة، وربط في بعض الأحيان بينهما، وانتقل من احدهما الى الأخرى، تعبيراً عن هذه الوحدة الاجتماعية (١٤٥).

(ادْعُهُمْ لَا بِأَنَّهُمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا عِبَاءَهُمْ فَبِخَوَانِكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ) (١٤٦).

ومن أجل اعطاء الصورة الرائعة والكاملة لهذا المفهوم في العلاقة الانسانية عندما تنعكس على المجتمع الانساني الصالح، نجد القرآن الكريم يطلق هذا المفهوم لتصوير العلاقة القائمة بين بني الإنسان في مجتمع الجنة الذي يمثل المجتمع التكاملي الأفضل في

(١٤٤) التوبة: ١١-٥.

(١٤٥) لقد استخدم القرآن الكريم كلمة الأخ في الأخ للأبوين وللأب والأم الواحدة، وفي موارد كثيرة، كما في قصة موسى ويوسف وابني آدم وغيرها، كما استخدم الأخ في القوم كما في مثل قوله: (واذكر أخوا عاد إذ أنذر قومه) (الأحقاف: ٢١) وغيرها من الموارد المتعددة، أو (الذين قالوا لآخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا) (آل عمران: ١٦٨)، وفي موارد الأخوة في الدين سواء كانت إسلامية كما في الآيات المذكورة في المتن أو غير إسلامية كما في مثل (ان المبشرين كانوا اخوان الشياطين) (الاسراء: ٢٧). (واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون) (الاعراف: ٢٠٢) (ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لآخوانهم الذين كفروا) (الحشر: ١١)، ومن خلال هذه الموارد يمكن أن نعرف أنَّ مفهوم الأخوة اما أن يراد منها الأخوة الرحمية مع التوسعة فيها، بحيث تشمل الأب البعيد نسبياً، بحيث تبقى الارتباطات القبلية والقومية القريبة قائمة، أو الأخوة الدينية والعقائدية.

(١٤٦) الاحزاب: ٥.

مسيرة الإنسان، عندما يصفهم في قوله تعالى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ* وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ* لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ بِمُخْرَجِينَ) (١٤٧).

٢- تأكيد قاعدة هذه الأخوة بتطوير العلاقة العقائدية والايديولوجية الى علاقة ذات بعد «نفسى» و«روحي» و«عملي»، من خلال التعبير عنها بعلاقة «الولاء»، وتترتب عليها حقوق وواجبات.

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (١٤٨).

وقد جاء التأكيد على هذا المفهوم في آيات عديدة من القرآن الكريم، ولعل أكثرها تفصيلا في هذا المجال قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (١٤٩).

بل قدمت هذه العلاقة الايمانية في القضية المعنوية على العلاقات الرحمية الأخرى، كما يشير الى ذلك قوله تعالى:

(...يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا نَزَلَتِ التَّوْرَةُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ... * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ... الْآيَاتِ) (١٥٠).

كما قدمت على الاستحقاقات الاجتماعية والتاريخية مثل قوله تعالى:

(وَمَا لَهُمْ أَلْيَعِذُّهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَفُونُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (١٥١).

(١٤٧) الحجر: ٤٥-٤٨.

(١٤٨) التوبة: ٧١.

(١٤٩) الأنفال: ٧٢-٧٥.

(١٥٠) آل عمران: ٦٥-٦٨.

(١٥١) الأنفال: ٣٤.

٣- انّ هذا الولاء بين المؤمنين، ينطلق من الولاء لله تعالى ولرسوله، ويرتبط به، وعلى أساسه تتكون الكتلة المسلمة في حركتها السياسيّة والاجتماعيّة، فالله سبحانه وتعالى هو مولى المؤمنين نعم المولى ونعم النصير.

(الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) (١٥٢).

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) (١٥٣).

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ* وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) (١٥٤)

(ذلك بأنّ الله مولى الذين آمنوا وإنّ الكافرين لا مولى لهم) (١٥٥)

بل انّ الملائكة تنزل على هؤلاء المؤمنين، وتتحوّل الى أولياء لهم، باعتبار هذه العلاقة الايمانيّة بالله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ* نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ...) (١٥٦).

كما تمّ التأكيد بشكل واسع في القرآن الكريم على نفي ولاء الله تعالى للكافرين والتبرّي منهم، بل نفي كل ولي لهم من دون الله في الدنيا والآخرة.

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ...) (١٥٧)

(والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير) (١٥٨)

(ولو قاتلكم الذين كفروا لؤلؤا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً) (١٥٩)

(وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير) (١٦٠).

(١٥٢) البقرة: ٢٥٧.

(١٥٣) الحج: ٧٨.

(١٥٤) المائدة: ٥٥-٥٦.

(١٥٥) محمد: ١١.

(١٥٦) فصلت: ٣٠-٣١.

(١٥٧) العنكبوت: ٤١.

(١٥٨) الشورى: ٨.

(١٥٩) الفتح: ٢٢.

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) (١٦١) .

٤- الدعوة الى ترك جميع الولاءات الأخرى التي لا ترتبط بالولاء الايماني، سواء العائلية أو القبلية منها، أو الجماعات الدينية الأخرى، فضلا عن الكفار والمشركين، وهذا الأمر يجعل محور الولاء الأصلي في الحياة الاجتماعية والسياسية هو الولاء الايماني، أي ولاء المؤمن لله تعالى وللرسول وللمؤمنين.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا) (١٦٢) .

بل يشتد القرآن في هذا الموضوع، ويتصاعد التأكيد الى المنع المطلق:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (١٦٣) .

ويتسع هذا النهي ويشتد حتى يشمل الآخرين أيضاً بل كل الحياة الإنسانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ* قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (١٦٤) .

ويقوم القرآن الكريم هذه الدرجة العالية من الولاء لله وللمؤمنين بجانبها الايجابي والسلبي، والتي تشكل الاطار الحقيقي للجماعة الصالحة الموحدة في قوله تعالى:

(لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (١٦٥) .

فإن هذه الآية الكريمة تكمل الصورة في الآيات الكريمة (٥١-٥٦) التي وردت في سورة المائدة، والتي اشرنا اليها آنفاً.

(١٦٠) التوبة: ٧٤.

(١٦١) الاحزاب: ٦٥.

(١٦٢) النساء: ١٤٤.

(١٦٣) المائدة: ٥١.

(١٦٤) التوبة: ٢٣-٢٤.

(١٦٥) المجادلة: ٢٢.

٥- ولم يترك القرآن الكريم قضية هذا المضمون للعلاقة المتمثل بالولاء أمراً عاماً، بل تحدّث عن أبعاده ومواصفاته المختلفة، حيث تمت الإشارة في القرآن الكريم الى ضرورة أن يتصف هذا الولاء بالحب والايثار والرحمة والتواضع والنصرة، ومن هنا يتحول هذا الولاء من مجرد عاطفة قلبية الى مضمون روحي واجتماعي وسياسي يصلح لأن يقوم على أساسه المجتمع الإسلامي الواحد ويمثل رباط الوحدة الإسلامية القويّة، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْأَيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (١٦٦).

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا...) (١٦٧).

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) (١٦٨).

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) (١٦٩).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ...) (١٧٠).

(وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ...) (١٧١).

(فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِوَ عَزَّوَهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (١٧٢).

(ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ) (١٧٣).

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) (١٧٤).

(١٦٦) الحشر: ٩-١٠.

(١٦٧) الفتح: ٢٩.

(١٦٨) المائدة: ٢.

(١٦٩) آل عمران: ١١٠.

(١٧٠) المائدة: ١٥٢.

(١٧١) الأنفال: ٧٢.

(١٧٢) الأعراف: ١٥٧.

(١٧٣) آل عمران: ٨١.

(١٧٤) الشورى: ٣٩.

الأساس الخامس: القاعدة الأخلاقية

تشكل القضية الأخلاقية في النظرية الإسلامية قاعدة أساسية في مجمل التصور الإسلامي تجاه مختلف قضايا العقيدة والعلاقات الاجتماعية والسياسية، والتكامل الانساني الجماعي والفردى، في الدنيا والآخرة، بل يمكن أن نقول أن محتوى النظرية الإسلامية العام، إنما هو محتوى أخلاقي، كما ورد في ذلك الحديث الشريف عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(١٧٥).

ولذلك نجد القرآن الكريم يتحدث عن الأخلاق ليس في علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان، وإنما في علاقة الإنسان بربه بمختلف جوانبها، وفي علاقة الإنسان بالكون، ومسؤوليته تجاه نفسه، وفي مستقبل حياته.

ومن هذا المنطلق يمكن أن نعرف أن القاعدة الأخلاقية تشكل أرضية أساسية لقضية الوحدة الإسلامية، وبالإضافة الى هذا الجانب نجد القرآن الكريم يتحدث عن القضية الأخلاقية، في مجال وحدة المجتمع الإسلامي، ورسم معالم طبيعة العلاقات القائمة فيه بشكل خاص، وبالشكل الذي يجعله منيعاً عن تعرضه لمختلف أسباب الخلاف وعوامله، ويمكن أن نجد معالم القضية «الأخلاقية» فيما يتعلق بموضوع الوحدة الإسلامية في النقاط التالية:

أ - العهد والميثاق:

لقد أكد القرآن الكريم على ضرورة الوفاء بالعهد والالتزام بالميثاق بشكل عام في جميع المجالات، ومع ذلك جاء التأكيد على ذلك في العلاقات الاجتماعية والسياسية كقضية أساسية وحتى مع الأعداء، فضلاً عن المسلمين والمؤمنين، الأمر الذي يعني أن هذا الجانب الأخلاقي، يمثل قضية مهمة في حفظ وبقاء وحدة المجتمع، ويمكن أن نتبين هذه الصورة بابعادها المختلفة من خلال هذه الآيات الكريمة.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ* وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ* وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقِضَتْ عَهْدَهُمْ لِقَاعَ اللَّهِ فَكَانَ عَهْدُهُمْ يَبْتَغِي لَكُمْ لَعْنَةً وَنَقِصَ عَنْ قُلُوبِكُم مِّنْ فَطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَكَّرَ لِخَلْقِ النَّاسِ وَلَئِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ لَّعَلَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنَّ

يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِئْسَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ* وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(١٧٦).

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ*) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^(١٧٧).

(... إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ...*) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (...)^(١٧٨).

فإنها توضح أهمية العهد في العلاقات السياسية الدولية.

ب - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم القضايا الأخلاقية التي تحفظ وحدد المجتمع والأمة، كما يعبر عملياً عن الاحساس بالمسؤولية تجاه المجتمع والأمة ضمن الاطار الواحد، والتكامل في الحركة والالتزام. ومن هذا المنطلق جاء التأكيد على هذا الأمر في سياق الأمر بالوحدة وعدم التفرق في التعبير عن ذلك بالأمة الواحدة.

(وَلَتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ*... كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...)^(١٧٩).

ولقد جاء وصف الجماعة الإسلامية في وحدتها وترابطها وولائها بهذا الوصف في عدة موارد من القرآن الكريم:

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَقِيبَةُ الْأُمُورِ)^(١٨٠)

(١٧٦) النحل: ٩٠-٩٤.

(١٧٧) الانعام: ١٥٢-١٥٣.

(١٧٨) التوبة: ٤-٧.

(١٧٩) آل عمران: ١٠٤-١١٠.

(١٨٠) الحج: ٤١.

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ...) (١٨١).
(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ...) (١٨٢).

ج - الحكم بالقسط والعدل:

لا شك أن القسط والعدل في الأمة يمثل قاعدة أخلاقية وسياسية تحفظ وحدة المجتمع، ولذلك نجد القرآن الكريم يؤكد على هذا الجانب في حفظ وحدة المجتمع، والمنع من وقوع الخلافات أو تصاعدها:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) (١٨٣).

حيث جاءت هذه الآية الكريمة كتمهيد لبيان ما ذكرته الآية التالية في الرد الى الرسول عند التنازع:

(فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول) (١٨٤).

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلووا أن تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً) (١٨٥).

(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المسقطين) (١٨٦).

(ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا) (١٨٧).

د - التعاون على البر والتقوى:

(١٨١) التوبة: ٧١.

(١٨٢) الاعراف: ١٥٧.

(١٨٣) النساء: ٥٨.

(١٨٤) النساء: ٥٩.

(١٨٥) النساء: ١٣٥.

(١٨٦) الممتحنة: ٨.

(١٨٧) المائدة: ٢.

لقد حرص القرآن الكريم في سبيل تحكيم الوحدة بين أبناء الأمة وأفراد المجتمع الإسلامي، أن يبني العلاقات القويّة ذات الأهداف الصالحة، ومن هنا جاء التأكيد على عدّة قضايا مهمة في هذا المجال، منها التأكيد على التعاون وعلى البرّ والتقوى:

(وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان...) (١٨٨).

ومنها التأكيد على التواصي بالحق والصبر والمرحمة.

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) (١٨٩)

(ثمّ كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) (١٩٠).

ومنها النهي عن الإثم والعدوان والافساد في الأرض، ووضع عقوبات رادعة لهذه المخالفات المضرة بالوحدة بين المسلمين، والتي تنتهي الى التفرق والتنازع والاختلاف:

(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين) (١٩١).

ويبدو من القرآن الكريم أنّ أوضح مصاديق الفساد في الأرض الذي جاء النهي عنه في القرآن في موارد عديدة، هو زرع الشقاق والاختلاف والفرقة في المجتمع.

ولذلك جاء هذا القدر من التأكيد والردع عن هذا الافساد:

(ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إنّ رحمة الله قريب من المحسنين) (١٩٢).

(إنّ فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم أنّه كان من المفسدين) (١٩٣).

(واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد) (١٩٤).

(إنّما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم) (١٩٥).

هـ - اشاعة الخير والبر:

(١٨٨) المائدة: ٢.

(١٨٩) العصر: ٣.

(١٩٠) البلد: ١٧.

(١٩١) البقرة: ١٩٠.

(١٩٢) الاعراف: ٥٦.

(١٩٣) القصص: ٤.

(١٩٤) البقرة: ٢٠٥.

(١٩٥) المائدة: ٣٣.

انّ اشاعة الخير والبر والصلاح يمثل بعداً آخر في الأرضيّة الأخلاقيّة ولعلّ هذا المفهوم القرآني من أوسع المفاهيم والمصطلحات القرآنيّة استعمالاً في مجال العمل الأخلاقي، فالإيمان بالله، واليوم الآخر، والعبادة، من الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، والجهاد في سبيل الله، والانفاق، والبذل، والصدقة، والمغفرة، وقول المعروف، والاصلاح بين الناس، والصبر... الى غير ذلك من القضايا المرتبطة بالتكامل البشري، والأخلاق العالية والطاعة لله تعالى، كل ذلك من ابواب الخير، ولذلك جاء النداء القرآني بالدعوة الى الخير في آيات عديدة، تقدمت الاشارة الى بعضها، بل انّ بعضها جاء في سياق الحديث عن الاختلاف بسبب اتباع الهوى، وانّ الحل الفاصل انما هو الاستباق الى الخيرات.

(وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون)^(١٩٦)

(وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين)^(١٩٧)

البعد الثاني: وسائل تحقيق الوحدة الإسلاميّة

لم يكتف القرآن الكريم بتشخيص الأسس التي تقوم عليها الوحدة في المجتمع الإسلامي، بل اهتم الى جانب ذلك بالأساليب والمناهج والوسائل التي يمكن أن تتبع لتحقيق هذه الوحدة وبهذا الصدد لابد أن نشير الى أنّ الاسس التي تحدّثنا عنها في البعد الأول، تمثل في جانب آخر منها وسائل لتحقيق الوحدة أيضاً، ولكنها وسائل وقائيّة تمنع أوتساهم في المنع من حدوث الاختلاف والتنازع، فالطاعة لله وللرسول (صلى الله عليه وآله) والرد اليه، وكذلك رعاية القيادة للامة والتعامل معها بأسلوب اللين والرحمة، كلها وسائل لحفظ الوحدة الإسلاميّة، وأيضاً من هذه الوسائل هو الحكم بالعدل والقسط بين الرعيّة، أوفي معالجة الإدعاءات المتضادّة في الحياة الاجتماعيّة، وأمّا الوسائل التي نريد الاشارة اليها في هذا البعد، فهي وسائل علاج في حالة ظهور الاختلاف والنزاع، فهي في الحقيقة، قواعد وضوابط ومناهج

(١٩٦) المائدة: ٤٨.

(١٩٧) الانبياء: ٧٣.

عملية وضعها الإسلام للمعالجة، بعد ظهور الخلافات في المجتمع الإسلامي، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي.

وفي هذا المجال نشير الى مجموعة من الوسائل التي تحدّث عنها القرآن الكريم في مقام تحقيق الوحدة والوفاق بين أبناء المجتمع الانساني والإسلامي.

الأول: الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة

في بحث الوحدة والاختلاف عرفنا بأنّ الناس كانوا أمة واحدة، ثم كان الاختلاف بينهم بسبب الهوى وتضاد المصالح والمنافع والأهواء الخاصة بينهم، كما أنّه في مرحلة متأخرة حصل الاختلاف، بسبب عدم وضوح الرؤية، فجاءت الرسالات الإلهية والانبياء، لحل هذا الخلاف والنزاع، ثمّ جاءت مرحلة أخرى فكانت الاجتهادات الخاطئة في تفسير الدين، وحصل الاختلاف بسبب ذلك.

وفي كل هذه المراحل كان هناك دور للطغيان والطغاة في تمزيق شمل الناس، وزرع الاختلافات بينهم.

وقد اعتمد القرآن الكريم والإسلام العظيم في معالجة كل هذه الحالات الى أساليب ثلاثة رئيسية:

- أ- دعوة الإنسان الى الرجوع الى العقل والتدبّر والتفكير.
- ب- الإعتداد في الوصول الى الحقائق على الحجة والدليل والبرهان.
- ج - الجهاد في سبيل الله لمواجهة الطغاة والجبابة الذين يستخدمون القوة لقهر الناس على الضلال.

ومن خلال هذه النظرة الكلية الى موضوع الاختلاف، ومعالجة أسبابه نجد دور الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فإنّها تأتي كاسلوب في مخاطبة العقل، وإيجاد أرضية التفكير والتدبّر حيث يمكن السيطرة على العواطف والمشاعر والأحاسيس، ويتغلب العقل على الهوى، وجانب المصلحة الحقيقية الدائمة والعامة المتمثل بمصالح المجتمع والإنسان في مستقبل حياته الأخروية على جانب المصلحة الآنية للفرد:

(ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن...) (١٩٨)

(ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم). (١٩٩)

(وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إنَّ الشيطان ينزغ بينهم إنَّ الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً). (٢٠٠)

الثاني: الصلح والمسامحي الحميدة

ويأتي - أيضاً - في صراط الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة المسامحي الحميدة التي يمكن أن يبذلها العقلاء والحكماء والمخلصون في سبيل تحقيق الصلح والوفاق والانسجام بين الأطراف المختلفة، فإنَّ هذه المسامحي تصبُّ في نفس الاتجاه الذي تحقِّقه الموعظة الحسنة في مخاطبة العقل، وتهدئة الخواطر، وممارسة الضغوط الأدبيَّة والأخلاقيَّة والنفسية للسيطرة على المشاعر والأحاسيس وقد أكد القرآن الكريم في عدة موارد على هذا الأسلوب ودعا لممارسته سواء على مستوى الخلافات ذات الطابع الفردي، كما في مجال الأسرة، أو الخلافات على المستوى الجماعي عند ما تقع بين القبائل والجماعات:

(يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله). (٢٠١)

(وإنَّ امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خيرٌ

وأحضرت الأنفس الشح). (٢٠٢)

(وإنَّ خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إنَّ الله

كان عليماً خبيراً). (٢٠٣)

(وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما...). (٢٠٤)

(إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) (٢٠٥)

الثالث: العفو والصفح

(١٩٩) فصلت: ٣٤.

(٢٠٠) الإسراء: ٥٣.

(٢٠١) الأنفال: ١.

(٢٠٢) النساء: ١٢٨.

(٢٠٣) النساء: ٣٥.

(٢٠٤) الحجرات: ٩.

(٢٠٥) الحجرات: ١٠.

والى جانب الاسلوبين الماضيين، يأتي العفو والصفح كاسلوب لحفظ الوحدة، ومعالجة قضايا النزاع والخلاف وأسبابه، ذلك انّ الصّح والعفو كما هو قضية أخلاقية كذلك هو أسلوب للمحافظة على الوئام، وارجاع الأمور الى أوضاعها الطبيعيّة، واعطاء الفرصة مرّة اخرى للعودة الى الانسجام والتلاحم.

وينطلق هذا المبدأ والاسلوب من مبدأ التوبة والمغفرة الإلهية الذي فتحه الله سبحانه وتعالى لعباده من أجل اعطاء فرصة للعبد لأن يرجع الى طريق الله والتكامل والانابة الى الحق والهدى والصّلاح:

(وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم * ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور)(٢٠٦).

(ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم)(٢٠٧)

(وان طلقتموهنّ من قبل أن تمسوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وان تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم ان الله بما تعملون بصير)(٢٠٨)

الرابع: الوقوف في وجه العدوان

انّ الطغيان والعدوان أحد الأسباب المهمة للاختلاف والفرقة خصوصاً اذا تحوّل الطغيان الى حالة اجتماعية عامّة من خلال الوضع الثقافي للامة، والممارسة الطويلة في المجتمع أو من خلال وجود مؤسسة قويّة تقوم على الطغيان كالحاكم الطاغية أو الجيش أو الدولة، والذي يؤدي عادة اما الى تمزيق الامّة المحكومة نفسها، او وجود الاختلافات والنزاعات بين أبناء الامّة أنفسهم، وهذا ما عرفتة البشريّة في تاريخها من ظاهرة الحروب والمعارك والاقْتتال فضلاً عن الألوان الأخرى من الطغيان.

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا الموضوع، ووضع له المعالجات المناسبة، سواء على مستوى الجماعات والامم، أو على مستوى الامّة الإسلامية نفسها، فعلى المستوى الأول:

(٢٠٦) الشورى: ٤٠-٤٣.

(٢٠٧) النور: ٢٢.

(٢٠٨) البقرة: ٢٣٧.

أ - قرر القرآن الكريم أنّ الحرب لا يصح أن يبدأ بها المسلمون إلاّ دفاعاً عن النفس، ومواجهة للعدوان على الدين والحرّمات:

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإنّ الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلاّ أن يقولوا ربّنا الله ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقويّ عزيز) (٢٠٩).

(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحبّ المعتدين)*...الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرّمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا إنّ الله مع المتقين) (٢١٠).

ب - اعتبر القرآن الكريم الفتنة، والاخراج من الديار، وممارسة الارهاب من أجل اجبار الناس على الكفر والانحراف في العقيدة لوناً من ألوان الحرب والعدوان:

(يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّونكم عن دينكم ان استطاعوا) (٢١١).

ج - اعتبر اضطهاد الإنسان والعدوان على حقوقه الانسانيّة الأساسيّة لوناً من ألوان الحرب غير المعلنة، والتي تبرر القتال والدفاع عن النفس وعن المستضعفين:

(وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً) (٢١٢).

د - أكد الإسلام والقرآن الكريم أنّه اذا انتفت هذه المبررات فلا داعي للحرب، بل لا بدّ أن يعم السلم والسلام والهدوء، ما لم تؤكّد جميع الدلائل على أنّ العدو يريد أن يستفيد من فرصة السلم للانقضاض مرة اخرى على المسلمين أو نقض المواثيق والعهود معهم.

(إلاّ الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق أوجاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً) (٢١٣).

(٢٠٩) الحج: ٣٩-٤٠.

(٢١٠) البقرة: ١٩٠-١٩٤.

(٢١١) البقرة: ٢١٧.

(٢١٢) النساء: ٧٥.

(٢١٣) النساء: ٩٠.

(ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردّوا الى الفتنة اركسوا فيها فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم واولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً)^(٢١٤) كما تعالج الآيات الأربع الاولى في أول سورة التوبة هذا الموضوع بشكل تفصيلي والتي تختم بقوله تعالى:

(ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا باخراج الرسول وهم بدوكم أول مرّة أتخشونهم فالله أحقّ أن تخشوه ان كنتم مؤمنين)^(٢١٥)

وأما على مستوى الامّة الإسلامية نفسها فإنّ النزاعات تعالج في البداية بالعفو أو الصلح والمسعى الحميدة، كما أشرنا سابقاً، فاذا أصرّ أحد الجانبين على تأجيج الصراع واستمراره فلا بدّ من النظر الى الموضوع من خلال قوانين وقواعد القسط والعدل والوقوف حينئذ في وجه المعتدي، والى جانب المعتدى عليه، وإيقاف المعتدي عن عدوانه، فاذا بغى على الحق والعدل، فلا بدّ من قتاله حتى يرجع الى الحق ويلتزم به.

وقد أوضحت آيتا سورة «الحجرات» هذا الموقف بشكل واضح:

(وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا انّ الله يحب المقسطين * انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون)^(٢١٦).

وفي مجال القضايا والأحوال الشخصية قوله تعالى:

(واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ فأمسكوهنّ بمعروف أو سرحوهنّ بمعروف ولا تمسكوهنّ ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزواً...)^(٢١٧)

(ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق اولئك لهم عذاب أليم)^(٢١٨).

الخامس: الاعتماد على العلم في معالجة الحوادث

(٢١٤) النساء: ٩١.

(٢١٥) التوبة: ١٣.

(٢١٦) الحجرات: ٩-١٠.

(٢١٧) البقرة: ٢٣١.

(٢١٨) الشورى: ٤١-٤٢.

لقد عرفنا أنّ أحد أسباب التنازع والفرقة هو الاجتهادات الخاطئة والاعتماد على الشبهات والظنون الآثمة، ولذا نجد القرآن الكريم يعالج هذا السبب من الفرقة والاختلاف بالدعوة الى اعتماد العلم والبيّنة في معرفة الحقائق، والنهي عن اعتماد الظنون والاحتمالات والشبهات، وأنكر على المشركين والكفار من أهل الكتاب اتباعهم للظنون في معالجة القضايا الحياتيّة المهمة، ودعاهم الى الرجوع الى أهل العلم والذكر عند عدم العلم:

(يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)(٢١٩).

(يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن أن بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحذكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه...)(٢٢٠).

(ولا تقف ما ليس لك به علم أن السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسؤولاً)(٢٢١)

(فسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون * بالبينات والزبر...)(٢٢٢)

(وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً)(٢٢٣).

(ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون)(٢٢٤)

(ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)(٢٢٥).

بل اهتم القرآن الكريم في بعض القضايا المهمة كالقضايا الماليّة، والوصايا التي تكون مورداً للنزاعات في كثير من الأحيان، فأمر فيها بالكتابة والاشهاد، منعاً لهذه النزاعات والاختلافات.

وبهذا الصدد جاءت الآية «٢٨٢» من سورة البقرة التي تؤكّد على كتابة الدين، حيث جاء التأكيد والتعليل لهذا الحكم بقوله تعالى:

(٢١٩) الحجرات: ٦.

(٢٢٠) الحجرات: ١٢.

(٢٢١) الاسراء: ٣٦.

(٢٢٢) النحل: ٤٣-٤٤.

(٢٢٣) النساء: ١٥٧.

(٢٢٤) البقرة: ٧٨.

(٢٢٥) آل عمران: ٦٦.

(ولا تسنموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا...) .

(وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم...فاذا دفعتم اليهم أموالهم فاشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً)(٢٢٦) .

(فاذا بلغن أجلهنّ فامسكوهنّ بمعروف أو فارقوهنّ بمعروف واشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله...)(٢٢٧) .

(يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو اثنان من غيركم...ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم...)(٢٢٨) .

كما تناول القرآن الكريم قضية الاشاعات والأراجيف التي يبثها أعداء الامّة الداخلين، أو الجهلة وضعاف النفوس، والتي تهدد المجتمع الإسلامي بالاختلاف والتمزق والضعف، ونجد مثالا على ذلك في قضية حديث الافك:

(إنّ الذين جاءوا بالافك عصابة منك لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم * لو لا اذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا افك مبين *...اذ تلقونه بالسننكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم... إنّ الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب اليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون)(٢٢٩) .

بل إنّ القرآن الكريم يتخذ موقفاً مشدداً من هؤلاء المرجفين وأصحاب الاشاعات، بعد أن يشخصهم في طبيعتهم كما جاء في سورة الأحزاب:

(لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً * معلونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً * سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً)(٢٣٠) .

(٢٢٦) النساء: ٦.

(٢٢٧) الطلاق: ٢.

(٢٢٨) المائدة: ١٠٦-١٠٨.

(٢٢٩) النور: ١١-١٩.

(٢٣٠) الاحزاب: ٦٠-٦٢.

وهذه الآية الكريمة تناولت موضوعات متعددة عقائدية واجتماعية وسياسية وشخصية، الأمر الذي يعني أنّ هذا الأسلوب في المعالجة له أهمية كبيرة تنعكس على مختلف المجالات ذات العلاقة بالوحدة الإسلامية، وظواهر التنازع والاختلاف.

السادس: التعامل على أساس ظاهر الإسلام

ومن الوسائل التي استخدمها القرآن الكريم لمعالجة النزاع والخلاف، التعامل على أساس ظاهر الإسلام، وعدم التفتيش في العقائد والنيّات، وهذا المبدأ يعتبر من أهم المبادئ التي يمكن من خلالها معالجة قضية الاختلافات المذهبية والعقائدية، بين أبناء الأمة الإسلامية:

(يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إنّ الله كان بما تعملون خبيراً)^(٢٣١).

(ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل اذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم)^(٢٣٢)

وفي هذه الحال يأتي النهي عن «التجسس» و«الغيبة» التي هي عبارة عن كشف عيوب وأسرار المؤمنين فإنّ ذلك يأتي في صراط التعامل على أساس الظاهر وعدم التفتيش عن العيوب، ما لم تتحول الى أعمال ونشاطات تخريبية ضارة بالمجتمع،

وبهذه الطريقة كان يتعامل النبي (صلى الله عليه وآله) مع أبناء المجتمع الإسلامي، وكان فيهم الكثير من المنافقين ومرضى القلوب وضعفاء النفوس، حتى تصاعد نشاطهم الهدّام والمعادي واتضحت مواقفهم، من خلال المواقف والأعمال، فصرّح القرآن الكريم بالحديث عنهم وعن سلوكهم، كما تحدّثنا بذلك سورة التوبة.

البعد الثالث: النتائج والآثار

(٢٣١) النساء: ٩٤.

(٢٣٢) التوبة: ٦١.

على ضوء الاستعراض السابق للأسس التي تقوم عليها الوحدة الإسلامية في المجتمع الإسلامي، والوسائل التي وضعها القرآن الكريم لتحقيق هذه الوحدة، يمكن أن نتعرف على النتائج والآثار التي يمكن أن تترتب على هذه الوحدة، والتي يمكن اجمالها في نقطتين رئيسيتين:

الأولى: إنّ الوحدة الإسلامية تحقق القوة والمنعة للمجتمع الإسلامي، في مواجهة جميع المشاكل والأزمات، التي يمكن أن يتعرض لها المجتمع الإسلامي والجماعة الإسلامية وخصوصاً في مواجهة الأعداء الخارجيين.

وقد تمّ التأكيد في القرآن الكريم على أنّ الوحدة هي مصدر للقوة، وأنّ الاختلاف والتنازع هو سبب للفشل والضعف، حيث جاء في سورة الأنفال في معرض الحديث عن المعركة الأولى، التي خاضها المسلمون مع المشركين، وهي معركة «بدر»، حيث كانت نسبة عدد المسلمين للمشركين أقلّ من الثلث، بالإضافة الى تفوّق المشركين على المسلمين في العدة والسلاح والتدريب والممارسة، وما حققه الله تعالى لهم من نصر... وعن أهمية الوحدة في هذه المواجهة، قال تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا اذا لقتيم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين) (٢٣٣).

حيث دعاهم الى وحدة الكلمة من خلال الطاعة لله وللرسول ونهاهم عن التنازع الذي يؤدي حتماً الى الفشل والضعف وذهاب الريح الذي هو كناية عن ذهاب الصولة والقوة والدولة.

كما يبدو من القرآن الكريم أنّ أحد أساليب العذاب التي ينزلها الله سبحانه وتعالى في الامم الضالة والمنحرفة، هو وقوع النزاع والخلاف بينها، وتطور هذا النزاع الى الحرب والاقত্তال.

(قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً، ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) (٢٣٤).

كما أنّ القرآن الكريم يتبرأ من القوم الذين تفرّقوا في الدين والمنهج، بحيث أصبحوا جماعات ممزّقة:

(٢٣٣) الانفال: ٤٥-٤٦.

(٢٣٤) الانعام: ٦٥.

(انّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء انّما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون)(٢٣٥)

ويؤكد ذلك في سورة الروم عندما يأمر بالتزام الدين القيم والابتعاد عن المشركين الذين تفرّقوا في دينهم وكانوا شيعاً وأحزاباً، قال تعالى:

(... ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كلّ حزب بما لديهم فرحون)(٢٣٦).
وبهذا نعرف انه بالاضافة الى أنّ الوحدة هي مصدر وسبب للقوة، فان الاختلاف يكون سبباً:

أ - لهدر الطاقات، والضعف، وذهاب الصولة والقوة والدولة، واشاعة الاضطراب والفساد.

ب - للبعد من الله تعالى، والغضب الالهي والبراءة من الجماعة.

ج - لنزول العذاب من الله تعالى، بل هو لون من ألوان العذاب والانتقام.

الثاني: انّ الوحدة الإسلامية تمثل نتاجاً طبيعياً للتكامل الانساني وتعبيراً عن تطور المجتمع الإسلامي وصلاحه، حيث نجد من خلال حديث القرآن الكريم عن اسس الوحدة ووسائلها أنّ مجتمع الوحدة هو:

أ - مجتمع التوحيد الخالص لله تعالى.

ب - مجتمع القانون والحكم الشرعي الالهي والطاعة لله وللرسول.

ج - مجتمع العلاقة والارتباط الوثيق، والولاء الصادق بين الحاكم والحكومة، والامّة والقيادة.

د - مجتمع علاقات الود والحب بين المسلمين وتآلف القلوب.

هـ - مجتمع الأخلاق الفاضلة، والتكامل الروحي والمعنوي.

و - مجتمع الجماعة التي تتبع منهج العقل والحكمة والعلم.

ز - مجتمع الشعور بالمسؤوليّة الإلهيّة والانسانيّة والتكامل والتضامن، في تحملها والجهاد من أجل مواجهة الظلم والعدوان وتحقيق المثل والقيم.

ولا شك انّ مثل هذه الصورة تمثل التكامل الاجتماعي في مسيرة الإنسان، فالوحدة الإسلامية ليست مجرد شعار يطرحه المسلمون لتحقيق غاية نبيلة، وخلص من الاضرار

(٢٣٥) الانعام: ١٥٩.

(٢٣٦) الروم: ٣١-٣٢.

المرتبة على الاختلاف، وأنما تمثل الوحدة من خلال هذه الرؤية هدفاً اسلامياً و انسانياً يرتبط بمجمل الأهداف الأساسية للدين وللرسالة الإسلامية، لأنّ هذه الوحدة لا يمكن أن تتحقق بدون هذه الأسباب والعوامل والاسس، وبدون هذه الوسائل والمناهج، فهي تعبير عن المجتمع الانساني الفاضل الذي دعى اليه الإسلام، وعمل من أجله الرسول محمد (صلى الله عليه وآله)، وأهل بيته الطاهرين وأصحابه المنتجبين، وجميع السلف الصالح من المسلمين. وبذلك تصبح الوحدة ضرورة من ضروريات الحياة الاسلامية، وواجباً شرعياً لجميع المسلمين المخلصين.

الباب الثاني: الوحدة الإسلامية في نظرية أهل البيت (عليهم السلام)

الباب الثاني

الوحدة الإسلامية

في نظرية أهل البيت (عليهم السلام)

عندما نريد أن نتحدث عن الوحدة الإسلامية في نظرية أهل البيت (عليهم السلام)، نحتاج الى دراسة واسعة وشاملة، لأنّ هذه القضية من القضايا الأساسية والمهمة، والتي واجهها أهل البيت (عليهم السلام) منذ الصدر الأول للإسلام، وبعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) بشكل مباشر، حيث كانت قضية خلافة الرسول، وما تشعب عنها من مسائل مثاراً للخلاف بين الصحابة، وبالأخص بين علي (عليه السلام) ومؤيديه من كبار الصحابة، أمثال العباس بن عبد المطلب، والزبير بن العوام، وسلمان الفارسي، وابوذر الغفاري، والمقداد بن الأسود، وحذيفة بن اليمان، والزهراء البتول، وأم أيمن، وأم سلمة، وغيرهم، من جانب والخليفة أبوبكر وعمر بن الخطاب وجمهور الأصحاب الذين بايعوا أبابكر في السقيفة من المهاجرين والأنصار.

واستمرت هذه القضية وآثارها وتبعاتها في طول عهود الأئمة الاثني عشر التي استغرقت الخلافة الراشدة، والخلافة الأموية، والى أواسط الخلافة العباسية وفي منتصف القرن الثالث الهجري، وحتى غيبة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف.

وفي كلّ هذه العهود والادوار، كان الأئمة يواجهون هذه الأحداث من خلال منهج عملي متكامل بشكل نظرية شاملة، والتي تحتاج بطبيعة الحال الى دراسة مستوعبة، ولكننا هنا نحاول أن نرسم الخطوط العامة لهذه النظرية ومعالمها الأساسية، مع ذكر بعض الشواهد عليها تاركين التفصيل والاستيعاب وذكر الأدلة والقرائن الكاملة الى دراسة اخرى.

وسوف نجد ان شاء الله أنّ هناك نظرية رائعة وعظيمة طرحها أئمة أهل البيت (عليهم السلام) للوحدة الإسلامية، تتسم بالواقعية والمصادقية والتجربة الحقيقية، والمعاناة، والقدرة على الصبر والتحمل والسيطرة على العواطف والاحاسيس، وتحكيم منهج القرآن والحكمة والعقل، وتقديم المصلحة الإسلامية العليا على جميع المصالح الثانوية الأخرى.

الوحدة والاولويات الإسلامية

لا شك أنّ النظرية الإسلامية نظرية متكاملة وشاملة لجميع مناحي الكون والحياة الانسانية تتناول في شمولها العقيدة (الله والوحي والنبوة والحياة الدنيا واليوم الآخر) كما

تتناول الإنسان في حياته الفردية والاجتماعية، وقضية الحكم والامامة، وتتناول الأخلاق والسلوك الشخصي للإنسان في علاقته بربه، وأخيه الإنسان، أو علاقته بالكون والحياة، والعبادة، والأسرة، والتجارة... الخ.

وكل هذه القضايا هي قضايا ذات علاقة بالنظرية الإسلامية وجاء بها الوحي الالهي، وتناولها القرآن الكريم والسنة النبوية.

ولكن بالرغم من هذه الشمولية والانتساب للإسلام يمكن أن نلاحظ أن النظرية الإسلامية تؤكد وتهتم ببعض المفردات وتعطيها درجة من الأهمية والأولوية، بحيث تختلف في ذلك عن مفردات أخرى.

فمثلاً نجد أن الشريك بالله لا يغفر للإنسان، بخلاف الذنوب والمعاصي الأخرى، فإنها تقبل المغفرة والعفو الالهي، وهكذا الحال في بعض الواجبات الإسلامية، كالصلاة التي تحظى باهتمام من الإسلام أكبر من الاهتمام بواجبات أخرى، مثل وجوب دفن الميت أورد السلام.

والسؤال بعد هذه المقدمة هو: ما هي أهم الأولويات بين الواجبات والمفردات الإسلامية في نظر أهل البيت (عليهم السلام) وما هو موقع الوحدة الإسلامية من هذه الأولويات؟

١- العقيدة الإسلامية

لا شك أن أول المفردات في سلم الأولويات في نظر أهل البيت (عليهم السلام)، هي مفردة (العقيدة الإسلامية)، والايان بالله تعالى والنبوة واليوم الآخر، حيث تتقدم هذه المفردة على جميع المفردات الأخرى، لأن الهدف الأساس من ارسال الرسل والنبوات إنما هو دعوة الناس الى هذه العقيدة، وبهذه العقيدة يتميز الإنسان المؤمن عن غيره من الناس، وعندما تتعرض قضية الايمان بالله تعالى الى الخطر تصبح هذه القضية هي الاولى التي تتقدم على جميع القضايا، والتي يصح التنازل من أجلها عن جميع الحقوق والتخلي عن جميع الواجبات عداها.

ولعلّ هذا المبدأ هو الذي كان يحكم موقف الإمام علي (عليه السلام) في سكوته تجاه قضية الخلافة، على ما تشير الى ذلك بعض الروايات^(٢٣٧) حيث كان يدرك بأن الحركة السياسية المسلحة المضادة قد تؤدي الى تعرض الرسالة الاسلامية الى الخطر، خصوصاً اذا أخذنا بنظر الاعتبار الأجواء السياسيّة والأمنية التي كانت تحيط هذا الكيان السياسي الجديد، والحركات المضادة كحركة مسيلمة الكذاب، وحركات الردّة والتمرد الأخرى التي شهدتها عصر الخليفة الأول، ولذا اكتفى الإمام علي (عليه السلام) بالسكوت والامتناع عن البيعة لفترة معينة لمجرد تسجيل الموقف السياسي.

كما أن هذه القضية هي التي تفسر تصدّي الإمام الحسين (عليه السلام) لتولي (يزيد) لأمر المسلمين، حيث كان هذا الأمر يوشّر الى عدة قضايا خطيرة، أحدها يتمثل بقضية الارتداد عن الإسلام بالشكل الذي يهدد العقيدة والرسالة الإسلامية، لأنّ الطريقة التي تمّ بها اختيار (يزيد)، والثقافة السياسيّة العامّة التي بثها معاوية بين المسلمين، والتي تعطي الشرعيّة لقمع أي حركة سياسيّة مضادة، حتى لو لم تكن مسلحة، والتي جنّد لها مجموعة من المرتزقة ووضّاع الحديث، وأصحاب القلوب المريضة، بالإضافة الى شخصيّة يزيد المعروفة باستهتارها بكل القيم والمثل والأعراف الإسلامية، والتي تكشفّت بعد ذلك بشكل واضح في «مجزرة كربلاء»، واستباحة المدينة المنورة، وفي الاعتداء على الحرم المكي، وضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق، وقتل خيرة الصحابة وأبنائهم، وأخذ البيعة منهم على أيّهم عبيد ليزيد بن معاوية.

وكانت هذه الأولويّة تحكم فعليّات أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في جميع عصورهم، حيث نجد الإمام الصادق (عليه السلام) يوظّف جانباً كبيراً من نشاطه في مواجهة حركات الارتداد والزندقة، والتي أخذت تنمو بسبب انشغال المسلمين بشكل عام بالنشاطات السياسيّة الحادّة والقوميّة، أبان فترة التغيير التي شهدتها العالم الإسلامي في العهد الأموي الى العهد العباسي. لكنّ الأئمة (عليه السلام) حينما وجدوا الامّة الإسلاميّة تواجه هذا التهديد العقائدي الخطير في غفلة من المسلمين، قاموا بمسؤولياتهم الدينيّة في هذا المجال. ومن الضروري أن نشير هنا الى أنّ المقصود بالقضيّة العقائديّة، هو قضيّة الأساس العقائدي للإسلام المتمثل بالايمان بالله والرسالة واليوم الآخر.

(٢٣٧) فقد ورد في نهج البلاغة أنه (عليه السلام) قال: «فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون الى محق دين محمد (صلى الله عليه وآله) فخشيت ان لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أوهدماً، تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي أئما هي متاع أيام قلائل...» (نهج البلاغة كتاب ٦٢ ص ٤٥١).

وأما الفروع الأخرى للعقيدة، فضلاً عن القضايا ذات الطابع الفقهي فهي لا تدخل بطبيعة الحال في هذه المفردة الأساسية، ومن هنا لابدّ أن نشير الى أنّ هذه الأولوية للعقيدة الإسلامية، تفرض علينا اهتماماً جديداً بالغاً في نظرتنا الى التحديات الحضارية المعاصرة، كما أشرنا الى ذلك في البحث السابق، وخصوصاً بالنسبة الى النظام العالمي الجديد، الذي لابدّ للنهضة الإسلامية المعاصرة من تبني تصور شامل حوله، وطرحه للبشرية جمعاء، ذلك أنّ هذه القضية تمثل في أحد جوانبها قضية عقائدية، لأنّه بدون هذا الطرح الجديد، سوف تثار الشكوك بشكل طبيعي حول صلاحية الرسالة الإسلامية لمواجهة التحديات، وهي رسالة عالمية وخاتمة، فلا بدّ أن تكون قادرة على هذه المواجهة.

وقد أثّر مثل هذا الشك في بدايات القرن الرابع عشر الهجري ليس في الأوساط الغربية، بل في أوساط العالم الإسلامي أيضاً الأمر الذي مهدّ للغزو العسكري والحضاري الغربي.

٢- الدولة الإسلامية

المفردة الثانية في سلم الأولويات هي قضية الكيان السياسي الإسلامي المتمثل بالدولة الإسلامية، فإنّ هذا الكيان يأتي من حيث الأهمية بعد العقيدة الإسلامية.

ولذلك نجد أئمة أهل البيت (عليهم السلام) يحرصون على الحفاظ على الكيان السياسي الإسلامي المتمثل بالدولة الإسلامية، وعلى قوته ومنعته، بالرغم من وجود المؤاخذات الكثيرة لديهم على مجمل الأوضاع التي كانت تعيشها هذه الكيانات في مختلف العهود، ولكنهم كانوا ينظرون الى هذه المؤاخذات في إطار ضرورة المحافظة على الكيان الإسلامي في مقابل الاعداء الخارجيين والتهديدات التي كانت تواجهه.

وفي هذا المجال كان على أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أن يحافظوا على موازنة دقيقة وحساسة، نجد معالمها وآثارها في مجمل سلوكهم وأحاديثهم ومواقفهم المروية عنهم.

فمن ناحية كان يرى أهل البيت (عليهم السلام) ضرورة المحافظة على هذا الكيان، بحيث يجب أن يبقى قادراً على أداء وظائفه الأساسية في حفظ الأمن والاستقرار والدفاع عن الوجود الإسلامي أمام التهديدات الخارجية.

ومن هذا المنطلق لم يكونوا يسمحوا لأنفسهم إلا في حالات خاصة (كحالة الإمام الحسين عليه السلام) - كما أشرنا - أن يقوموا بأعمال ثورية مضادة، كما كانوا ينصحون شيعتهم في

أغلب الحالات بعدم المشاركة في هذه الأعمال، لأنها تزعزع هذا الوجود وتجعل الدولة الإسلامية تعيش الفوضى والاضطراب، وتضعف أمام الأعداء.

وكانو يحثون شيعتهم على القيام بواجباتهم في الدفاع عن هذا الكيان الإسلامي من خلال المراقبة على الثغور الإسلامية^(٢٣٨)، كما كان الإمام زين العابدين (عليه السلام) يدعو لأهل الثغور ويمجد أعمالهم وجهودهم.

وكانوا أيضاً يتعاملون مع المراسيم العامة الإسلامية الصحيحة لهذا الكيان الإسلامي على أنها مراسيم مشروعة، كقضية دفع الزكاة، والاشتراك في مراسم الحج والعيد وصلاة الجمعة والجماعة وغيرها من الممارسات الإسلامية، ويحثون شيعتهم على هذه المشاركة انطلاقاً من هذا المبدأ العام.

ولكن من جانب آخر، كان أهل البيت (عليهم السلام) يتحملون مسؤولية شرعية وأخلاقية وإنسانية تجاه قضية وجود الانحراف في الحكم الذي يرونه لا يتطابق مع تصوراتهم، لا في أصل حق الولاية والحاكمية، ولا في تفاصيل الممارسات الظالمة والجائرة، التي كان يقوم بها الحكم في كثير من الأدوار تجاه الأمة، واستهتاره بمصالحها لحساب المصالح الشخصية في كثير من الأدوار.

وهذه المسؤولية الكبيرة والحساسة كان يشعر بها أهل البيت (عليهم السلام) تجاه أتباعهم، وتجاه المسلمين عامة، ومن هنا نجد مواقف وأقوال أهل البيت (عليهم السلام) تتخذ أسلوب النقد والإصلاح والادانة أحياناً تجاه الحكم، وتشتد وتيرة هذه الفعاليات متناسقة مع وتيرة الانحراف والطغيان الذي كان يمارسه هذا الحكم، فقد ذكروا في أقوالهم أحقيتهم بالولاية، لأنهم كانوا بحاجة أن يحفظوا لشيعتهم وللمسلمين الحقيقة التي يعتقدون بها في هذا الحق، وأكدوا هذا الأمر في هذه الأقوال لأنهم بحاجة إلى ذلك، عندما أثار العباسيون شبهة أن ولد العباس هم أهل البيت (عليهم السلام) وهم مصداق (الرضا من آل محمد «ص»)، كما انهم كانوا بحاجة إلى هذا التأكيد لأنهم عملياً كانوا يتعايشون مع الحكم، وبدون هذا التأكيد سوف تضعف الحقيقة أو تشبه على الناس.

(٢٣٨) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: «كلّ ميت يختم على عمله إلا المرباط فانه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتان القبر». (المستدرك على الصحيحين للحافظ النيسابوري، ج: ٢، ص ٧٩، وعنه (صلى الله عليه وآله): «حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها». (نفس المصدر، ص ٨١) وعن أبي جعفر (عليه السلام) قال: «كل عين باكية يوم القيامة غير ثلاث: عين سهرت في سبيل الله... الحديث» (اصول الكافي ج: ٢، ح: ٢، ص ٨٠).

وأيضاً نجد أهل البيت (عليهم السلام) يمنعون شيعتهم ومن يأخذ برأيهم من المسلمين المشاركة في عمليات الغزو الذي كان يقوم به بعض حكام المسلمين من أجل المزيد من الغنائم أو السيطرة والهيمنة على الأراضي، لأنّ مثل هذه الحروب لم تكن مبررة دينياً وشرعياً^(٢٣٩)، بخلاف حروب صدر الإسلام حيث شارك فيها الإمام علي (عليه السلام) وخاصة أصحابه كسلمان الفارسي، لأنها ذات أهداف صحيحة^(٢٤٠).

كما انهم منعوا شيعتهم من التعاون مع الحكم ولو بخيط ابرة في بعض الادوار لحرمة هذه المعونة^(٢٤١) وخوفاً على شيعتهم من الانزلاق في منحدرات الظلم والطغيان والشهوات،

(٢٣٩) عن محمد بن عبد الله السمندي قال: قلت لابي عبد الله (عليه السلام) اني اكون بالباب يعني باب الابواب، فينادون السلاح فأخرج معهم، قال: فقال لي: أرايتك ان خرجت فأسرت رجلاً فأعطيتك الامان وجعلت له من العقد ما جعله رسول الله (صلى الله عليه وآله) للمشركين، أكان يفون لك به؟ قال: قلت: لا والله جعلت فداك ما كانوا يفون لي به، قال (عليه السلام): فلا تخرج، قال: ثم قال لي: أما انّ هناك السيف؟ «وعن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين: لا يخرج المسلم في الجهاد مع من لا يؤمن على الحكم ولا ينفذ في الفيء أمر الله عزّ وجل، فانه ان مات في ذلك المكان كان معيناً لعدونا في حبس حقناً والاشاظة بدماننا وميتته ميتة جاهلية». (وسائل الشيعة ج ٦، باب: ١٢، ح ٧، ٨، ص ٣٤).

(٢٤٠) حاصر أحد جيوش المسلمين قصرًا من قصور فارس وكان الأمير سلمان الفارسي فقالوا: يا ابا عبدالله ألا تنهد اليهم (اي تأمر الجيش بالزحف عليهم) قال: دعوني أدهم كما سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يدعو فأتاهم فقال لهم: انما أنا رجل منكم فارسي والعرب يطيعونني فان أسلمتم فلکم مثل الذي لنا وعليكم ما علينا وان ابستم الى دينكم تركناكم عليه واعطونا الجزية عن يد وانتم صاغرون، قال: ورطن اليهم بالفارسية وانتم غير محمودين، وان ابستم نابذناكم على سواء (اي أعلمناكم به وقتلناكم) قالوا: ما نحن بالذي يعطي الجزية ولكننا نقاتلكم، قالوا: يا أبا عبد الله الا تنهد اليهم، قال: فدعاهم ثلاثة ايام الى مثل هذا ثم قال: انهضوا اليهم قال: فنهضنا اليهم ففتحنا ذلك القصر.

(رواه الترمذي - التاج الجامع للاصول للشيخ منصور علي ناصف: ٣٦٦/٤ كتاب الجهاد والغزوات).

(٢٤١) فقد روي ان صفوان الجمال كان يكرى ابله الى هارون الرشيد ليحج عليها الى بيت الله الحرام، فدخل على الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام)، فلما استقر به المجلس التفت له الإمام قائلاً له: يا صفوان: كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً. فذهل صفوان وذابت نفسه، فقال للإمام: - جعلت فداك أي شيء هو؟ قال (عليه السلام): كراؤك جمالك من هذا الطاغية - يعني هارون - فقال: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً، ولا للصيد، ولا للهو ولكن اكريته لهذا الطريق - يعني طريق مكة - ولا أتولاه بنفسي ولكن أبعث معه غلماناً.

فقال له الإمام: يا صفوان أيقع كراك عليهم؟ قال: نعم جعلت فداك قال (عليه السلام): اتحب بقائهم حتى يخرج كراك؟ قال: نعم! قال (عليه السلام): من أحب بقائهم فهو منهم، ومن كان منهم كان وارداً للنار. فانطلق صفوان فباع جماله فبلغ ذلك هارون فاستدعاه، فلما مثل عنده قال له: يا صفوان بلغني أنك بعثت جمالك؟

قال: نعم!

قال: لم؟

قال: أنا شيخ وأن الغلمان لا يقومون بالاعمال. قال: هيهات!!

اني لأعلم من أشار بهذا عليك موسى بن جعفر. بحار الانوار ٣٧٦: ٧٢.

والتي كانت تغريهم بشكل خاص في أوائل
العصر العباسي.

كما كانوا يمنعون شيعتهم من التحاكم الى قضاة الجور ويرونه تحاكماً الى
الطاغوت. (٢٤٢)

وشجعوا أحياناً بعض الحركات الثورية التصحيحية في العالم الإسلامي، عندما كان
الظلم يبلغ درجة عالية من القسوة والاستهتار بالحقوق الانسانية، بل كان أهل البيت (عليهم
السلام) يرفعون أصواتهم بالاحتجاج في بعض الأحيان، وقد كانت هذه الموازنة ضرورية
ودقيقة ومهمة، وتعبّر عن هذه النظرة الاجمالية الى أهمية الكيان السياسي في النظرية
الإسلامية، وضرورة المحافظة عليه.

ولعل أحد احتمالات تفسير موقف الإمام علي (عليه السلام) من الخلافة في الصدر الأول
للاسلام ينطلق من هذا المبدأ، فأنه لا شك في أنّ الإمام علياً (عليه السلام) كان يعتقد أنّه الأحق
بالخلافة من الخليفة الأول أبي بكر، وقد صرّح بذلك في عدة مواضع، وامتنع عن البيعة في
البداية من أجل التعبير عن هذا الموقف، ولكنّه مع ذلك لم يتخذ موقفاً يتسم بالعنف واستخدام
السلاح في مواجهة هذه الخلافة.

وهناك عدد من التفسيرات والاحتمالات لخلفية موقف الإمام علي (عليه السلام) .

الأول: ما أشرنا اليه آنفاً من الاحساس بالخطر الذي يهدد الرسالة الإسلامية.

الثاني: أنّ الإمام علياً (عليه السلام) أدرك بأنّه غير قادر على مواجهة التخليط والاعداد
الجيد المسبق لتتصيب أبي بكر خليفة، والاستفادة من فرصة انشغاله بتكفين وتغسيل رسول
الله (صلى الله عليه وآله) والمحافظة على الأمانات الموجودة في عنقه، الأمر الذي يجعل العملية
ذات طابع انتحاري.

الثالث: شعور الإمام علي (عليه السلام) أنّ هذه المقاومة سوف تؤدي الى زعزعة الحكم
الإسلامي وكيانه الجديد، الأمر الذي يجعله غير قادر على القيام بوظائفه وواجباته
ومسؤولياته الخطيرة أمام أعداء الرسالة، أوفي نشرها وابلاغها للبشرية، وهذا الاحتمال

(٢٤٢) «عن عمر بن حنظلة قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث، فتحاكما
الى السلطان والى القضاة، أيحلّ ذلك؟ قال: من تحاكم اليهم في حق أو باطل فائماً تحاكم الى الطاغوت، وما يحكم له فائماً يأخذه
سحتاً وإن كان حقاً ثابتاً له، لانه أخذه بحكم الطاغوت وما أمر الله أن يكفر به، قال تعالى: (يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد
أمروا أن يكفروا به)، قلت: كيف يصنعان؟ قال ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف
أحكامنا، فليرضوا به حكماً، فاني قد جعلته عليكم حاكماً». (الوسائل ج ١٨، أبواب صفات القاضي، ص ٩٨).

الأخير له مبرراته وشواهد، فقد كان الإمام علي (عليه السلام) يملك مجموعة من الفرص والامكانات السياسيّة والمعنويّة والماديّة تجعله قادراً على القيام بحركة ناجحة لزعة الكيان واضعافه، والاحتفاظ بنفوذ قوي في مجمل الاوضاع السياسيّة ولكن على حساب قوة الكيان السياسي الإسلامي العام.

فمواهبه الشخصية القتالية الفريدة، وتاريخه الجهادي، وقربه من رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وفضله وعلمه، والنصوص الكثيرة الواردة في حقّه من رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالإضافة الى تأييد جماعة مهمة من اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) له تأييداً قوياً، أمثال العباس بن عبد المطلب والزبير بن العوام وسلمان الفارسي ومقداد بن الأسود وعمّار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، وغيرهم، وموقف الزهراء البتول (عليها السلام)، والموقف العام لشيخ الخزرج سعد بن عباد، وكذلك العرض السياسي الذي قدّمه أبو سفيان للوقوف الى جانبه في هذه المعركة، وهو عرض له أهميته السياسيّة في ذلك العصر، من خلال العلاقات القبليّة، والذي تبين بعد ذلك أنّ للأمويين دوراً كبيراً في الاوضاع السياسيّة، كلّ هذه العوامل وغيرها يمكن أن تكون مبررات للقيام بمثل هذا التحرك.

ولكنّ الإمام علياً (عليه السلام) انما انصرف عن ذلك حفاظاً على هذا الكيان الإسلامي الفتى، حيث كان يرى ذلك أولى من كلّ هذه الحقوق والاهداف.

ويبدو هذا الموقف أكثر وضوحاً في نهاية خلافة عثمان، فبالرغم من الملاحظات لدى الإمام (عليه السلام) على خلافة عثمان وطريقة ادارته للامور، وتمكينه لمجموعة من أقاربه المعروفين تاريخياً بعدائهم للإسلام وللنبي (صلى الله عليه وآله) من المواقع المهمة، وتعرض مجموعة من خاصة علي (عليه السلام) للاضطهاد أمثال أبي ذر وعمّار وعبد الله بن مسعود، وصدور الاحتجاجات من هنا وهناك على هذه الأوضاع من قبل المسلمين... فإنّ الإمام علياً لم يستغل أيّ واحد من هذه الظروف لصالح وصوله الى الحكم والخلافة، مع ايمانه العميق بأحقيقته بها، وانما حاول أن يهديء الأوضاع، وأن ينصح الخليفة، ويقف حائلاً بينه وبين غضب المسلمين، وبعد ذلك أرسل ولديه الحسنين عليهما السلام للدفاع عنه في بيته، حتى تمّ قتله غيلة.

إنّ كلّ هذه التفاصيل في هذا الموقف تؤكد هذه الأولويّة للكيان السياسي الإسلامي في نظر أهل البيت (عليهم السلام).

٣- الوحدة الإسلامية

والمفردة الثالثة في سلم الاولويات في نظر أهل البيت (عليه السلام) هي الوحدة الإسلامية، حيث تأتي هذه المفردة في جملة القضايا التي أعطاها أهل البيت (عليهم السلام) أهمية خاصة، وقدموها على الكثير من الحقوق والواجبات الخاصة بهم، لأنّ المسلمين لا يمكنهم أن يحتفظوا بفاعليتهم ووجودهم وتأثير رسالتهم على البشرية مالم يحققوا هذه الوحدة بينهم، كما أنّهم لا يمكنهم - كما أشرنا سابقاً - أن يخوضوا مواجهة مع أعدائهم مالم يصنعوا ذلك من دون فرق بين المواجهة الحضارية أو السياسية أو العلمية أو الاقتصادية، فضلا عن المواجهة العسكرية.

وأهل البيت (عليهم السلام) وان كانوا قد منحوا قدراً كبيراً من جهدهم واهتمامهم الى مفردة اساسية ومهمة في مجمل حركتهم وهي بناء الجماعة الصالحة المتمثلة بشيعتهم واتباعهم المعتقدين بامامتهم وولايتهم، ووضعوا في نفس الوقت أهدافاً لهذه الجماعة في طول التاريخ الإسلامي، إلا أنّ هذا الاهتمام كله جاء في ضمن المحافظة على وحدة الأمة الإسلامية، ومن أجل المحافظة على العقيدة الإسلامية والدولة الإسلامية والوحدة الإسلامية نفسها.

ومن هنا يمكن أن نعرف مدى التوافق والانسجام بين فكرة الوحدة الإسلامية وضرورتها، وبين فكرة الاهتمام باتباع أهل البيت (عليهم السلام) وبناء الجماعة الصالحة، حيث إنّ هذا البناء جاء في اطار هذه الوحدة ومن أجلها^(٢٤٣) ومن هذا المنطلق نجد أهل البيت (عليه السلام) يضعون اطرحة متكاملة، والبحث في هذه النظرية يقع في فصلين:

الأول: منهج الوحدة الإسلامية.

الثاني: هامش الاختلاف والتعدد.

(٢٤٣) يمكن التعرف على مزيد من التفصيل بمراجعة بحثنا حول (دور أهل البيت في بناء الكتلة الصالحة).

الفصل الأول

منهج الوحدة الاسلاميّة

من الممكن أن نرسم منهج الوحدة الاسلاميّة في نظر أهل البيت (عليهم السلام) - بشكل اجمالي - في المعالم الأربعة التالية:

المعلم الأول: ارساء الوحدة الاسلاميّة على أساس النظرية القرآنية

لقد اهتم أهل البيت (عليهم السلام) في منهجهم لتحقيق الوحدة الاسلاميّة بين المسلمين بالاسس التي اكد عليها القرآن الكريم، وكذلك بالوسائل التي استخدمها في سبيل تحقيق هذه الوحدة والتي استعرضناها في البحث السابق.

١ - ففضية التوحيد الالهي والعقيدة الاسلاميّة الصحيحة أولاها أهل البيت (عليهم السلام) أهمية خاصة، حيث جعلوا قضية العقيدة القضية الاولى في سلم الاولويات، ليس على مستوى الاهتمام بها وتقديمها على القضايا الاخرى كما أشرنا سابقاً فحسب، بل على مستوى ترتيب الآثار العملية في الحياة الاجتماعية، فمادام الإنسان المسلم ملتزماً بالشهادتين ترتب عليه آثار الإسلام من حرمة دمه وماله وعرضه ومواريثه وعهوده... الخ^(٢٤٤).

كما أنهم (عليهم السلام) أكدوا على تكامل الايمان بالله تعالى من خلال الطاعة والالتزام بأحكامه وأوامره ونواهيه وحدوده، فالايمن ليس مجرد التزام جامد، بل هو التزام متطور متحرك ومتنام^(٢٤٥).

(٢٤٤) «عن عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام): بم يكون الرجل مسلماً تحل مناقحته وموارثته، وبم يحرم دمه؟

قال (عليه السلام): يحرم دمه بالإسلام اذا ظهر وتحل مناقحته وموارثته» (الوسائل: ج: ١٤، ح: ١٧، ص ٤٢٧).

(٢٤٥) «روي أنّ سائلاً سأل الإمام جعفر بن محمد (عليه السلام): أيّ الأعمال أفضل عند الله؟ فقال (عليه السلام): «ما لا يقبل الله

عزّ وجلّ عملاً إلا به»، قال: وما هو؟ قال (عليه السلام): الايمان بالله أعلى الأعمال درجة، واشرفها منزلة، وأسناها حظاً. قال

السائل: قلت: أخبرني عن الايمان، أقول وعمل، أم قول بلا عمل؟ قال (عليه السلام): الايمان عمل كله، والقول بعض ذلك العمل،

بفرض من الله بيّن في كتابه، واضح نوره، ثابتة حجته، يشهد به الكتاب ويدعو اليه. قال: قلت: بيّن ذلك جعلني الله فداك حتى

٢- كما أنّ قضية طاعة الرسول والالتزام بالسنة النبوية كانت من القضايا الأساسية التي اكد عليها أهل البيت (عليه السلام)، ولذا نجد مدرستهم تمتاز بهذا التأكيد، فلا تقبل الاعتماد على الرأي أو القياس أو الاستحسانات المطلقة مصدراً لمعرفة الشريعة.

وترفض مدرستهم الاجتهاد في مقابل النص، وتؤكد مدرستهم - أيضاً - على مبدأ دور طاعة الرسول كحاكم وولي لأمر المسلمين (الامامة) من خلال التأكيد على مبدأ الولاية (المعصومة) و(المنصوصة)، انسجاماً مع قضية الطاعة للرسول نفسه، تعتبر قضية الحكم من القضايا الأساسية التي تفضل الصلاة والصيام والحج والزكاة، كما جاءت النصوص عنهم في هذا الأمر لأن الولاية مفتاحهنّ والوالي هو هو الدليل عليهنّ^(٢٤٦).

وفي هذا الصراط يأتي تأكيدهم على ضرورة التعايش مع الحكم الإسلامي حتى لو كان منحرفاً - كما ذكرنا آنفاً - وسوف نشير اليه في المعالم الآتية.

٣- كما أنهم أكدوا بشكل واضح على أهمية دور رعاية الراعي للرعية، والحاكم للأمة، حيث تمّ هذا التأكيد عملياً وبدرجة عالية مثالية من خلال سيرة الإمام علي (عليه السلام) في

أفهمه، قال (عليه السلام): ان الايمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهي تمامه، ومنه الناقص البين نقصانه، ومنه الراجح البين رجحانه. قال: قلت: ان الايمان لينتقص ويتم ويزيد؟ قال (عليه السلام): نعم... الحديث» (المستدرک وسائل الشيعة ج ١١ كتاب الجهاد ص ١٥٠).

(٢٤٦) «عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية، قال زرارة: فقلت: وأي شيء من ذلك أفضل؟ قال (عليه السلام): الولاية أفضل، لأنها مفتاحهنّ والوالي هو الدليل عليهنّ، قلت: ثم الذي يلي ذلك في الفضل؟ فقال (عليه السلام): الصلاة، ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: الصلاة عمود دينكم، قال: ثم الذي يليها في الفضل؟ قال (عليه السلام): الزكاة لأنه قرنهما بها وبدأ بالصلاة قبلها (عليه السلام) وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): الزكاة تذهب الذنوب. قلت: والذي يليها في الفضل؟ قال (عليه السلام): الحج، قال الله عزّ وجلّ: «والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين». (آل عمران: ٩٧)، وقال رسول الله ٩: «لحجة مقبولة خير من عشرين صلاة نافلة ومن طاف بهذا البيت طوافاً أحصى فيه أسبوعه وأحسن ركعتيه غفر الله له» وقال في يوم عرفة ويوم مزدلفة ما قال. قلت: فماذا يتبعه؟ قال (عليه السلام) الصوم، قلت: وما بال الصوم صار آخر ذلك أجمع؟ قال (عليه السلام): قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): الصوم جنة من النار، قال: ثم قال (عليه السلام): ان أفضل الأشياء ما إذا فاتك لم تكن منه توبة دون أن ترجع اليه، فتؤديه بعينه، ان الصلاة والزكاة والحج والولاية ليس يقع شيء مكانها دون أدائها وان الصوم اذا فاتك أوقصرت أوسافرت أدت مكانه أياماً غيرها، وجزيت ذلك الذنب بصدقة، ولا قضاء عليك، وليس من تلك الأربعة شيء يجزيك مكانه غيره، قال: ثم قال (عليه السلام): ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن الطاعة للامام بعد معرفته، ان الله عزّ وجلّ يقول: (من يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً) (النساء: ٨٠)، أما لو أنّ رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدّق بجميع ماله وحج جميع دهره ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه ويكون جميع أعماله بدلالته اليه، ما كان له على الله عز وجل حق في ثوابه، ولا كان من أهل الايمان، ثم قال: أولئك المحسن منهم يدخله الله الجنة بفضل رحمته». اصول الكافي ج ٢ باب دعائم الإسلام، ح: ٥.

خلافته، ومن خلال رعاية الأئمة لشيعتهم وأتباعهم ومواساتهم لهم مما تعجّ به روايات سيرتهم وسلوكهم.

كما تمّ هذا التأكيد بالقول والنصيحة، ولعلّ أروع النصوص في هذا المجال عهد الإمام علي (عليه السلام) لواليه على مصر مالك الاشر، والكتب والرسائل التي كان يبعث بها الإمام علي (عليه السلام) الى ولاته، والتي جمع الشريف الرضي قسماً منها في كتابه نهج البلاغة.

٤- كما أنّ النصوص الواردة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في حقوق المسلم على المسلمين، وتفاصيل هذه الحقوق، تؤكد بشكل رائع وتفصيلي مفهوم القاعدة والاطر الذي تقوم عليه هذه الوحدة بين المسلمين.^(٢٤٧)

٥ - وقد تضمن التراث الأخلاقي الذي تركه أئمة أهل البيت (عليهم السلام) سواء في مجال الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مختلف القضايا الأخلاقية وبتفاصيل وشمولية لا ينظر لها في المدارس الاخرى، أوفي مجال الدعاء والمناجاة مع الله، من روائع المعرفة وأساليب التكامل الإنساني، أوفي مجال الوصايا التي ضمنها أئمة أهل البيت (عليه السلام) مناهج للتربية الأخلاقية، أو الحكم والكلمات القصيرة أو غير ذلك من التراث الذي كان له دور عظيم ليس في التأثير على شيعتهم وبناء الجماعة الصالحة فحسب بل في مجموع الأمة الاسلامية.^(٢٤٨)

انّ هذا التقصي والمتابعة من قبل أهل البيت (عليهم السلام) لأسس النظرية القرآنية في الوحدة الاسلامية يجسد أحد معالم هذا المنهج.

وبالاضافة على ذلك تأكيدهم على الالتزام بأساليب القرآن في الوحدة التي تحدثنا عنها آنفاً، من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والعفو والصفح والمساخي الحميدة ليتحقق

(٢٤٧) «وفي وصية الإمام أمير المؤمنين لابنه محمد بن الحنفية قال: وأحسن الى جمع الناس كما تحب أن يحسن اليك وارض لهم ما ترضاه لنفسك، واستقبّ لهم ما تستقبّحه من غيرك، وحسن مع الناس خلقك، حتى اذا غبت عنهم حنوا اليك، واذا متّ بكوا عليك وقالوا (إنا لله وإنا اليه راجعون)، ولا تكن من الذين يقال عند موته «الحمد لله رب العالمين» واعلم أنّ رأس العقل بعد الايمان بالله عزّ وجل مداراة الناس، ولا خير فيمن لا يعاشر بالمعروف من لايّد من معاشرته، حتى يجعل الله الى الخلاص منه سبيلاً، فأني وجدت جميع ما يتعاش به الناس وبه يتعاشرون ملؤ مكيال ثلثاه استحسان، وثلثه تغافل». (وسائل الشيعة: ج ٨، ص ٥٤١).

«وعن ابي جعفر محمد بن علي الباقر (عليه السلام) قال: أحبّ أخاك المسلم وأحبّ له ما تحب لنفسك، واکره له ما تكره لنفسك، اذا احتجت فسله، واذا سألك فأعطه، ولا تتّخر عنه خيراً فانه لا يتّخر عنك، كن له ظهراً فانه لك ظهر، ان غاب فاحفظه في غيبته، وان شهد فزره واجله واکرمه، فانه منك وانت منه، وان كان عليك عاتباً فلا تفارقه حتى قلّ سخيمته وما في نفسه، فاذا أصابه خير فاحمد الله، وان ابتلى فاعضده وتمحل له». (نفس المصدر، ج ١٩، ص ٥٤٨).

(٢٤٨) تناولنا ذلك بشكل من التفصيل في بحثنا «دور أهل البيت في النظرية الاسلامية».

الصلح، مما ورد التأكيد عليها بشكل رائع وواسع، ويمكن أن نقول أن مدرسة أهل البيت تتميز بشكل خاص في التأكيد على اعتماد «العلم» منهجاً لمعرفة الحقائق، وفي الوقوف في وجه العدوان ومناصرة المظلوم، وفي التعامل على أساس ظاهر الإسلام دون التفتيش عن العقائد والنيّات.

المعلم الثاني: تبني قضايا الأمة الكبرى

والمعلم الثاني لمنهج أهل البيت (عليهم السلام) في الوحدة هو تبني قضايا الأمة الكبرى، بدلاً من تبني القضايا الجزئية أو الفئوية أو المذهبية، وتحويلها الى قضايا أساسية في الاهتمام والصراع، ولعلّ هذا هو أحد الخطوط الرئيسية التي تميز مذهب أهل البيت (عليهم السلام) في معالجة القضايا التي كانت تثير الخلاف والجدال والاهتمامات في الأمة الإسلامية، ذلك أن الأمة على مرّ العصور كانت تتعرض الى مختلف المستجدات الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكانت هذه المستجدات تثير الكثير من الاهتمام والخلافات، وتواجه العديد من الاجتهادات.

كما أنّ هذه المستجدات كانت تختلف من حيث القيمة ودرجة اهتمام الناس بها، وعلاقتها بمصالح الأمة بشكل عام، فكانت بعض القضايا الجزئية تنال درجة كبيرة من الاهتمام في بعض الأوساط، ويتم التركيز عليها بحيث تصبح وكأنها القضية الأساسية الاولى في الأمة دون أن يكون لها علاقة كبيرة بمصالحها وقضاياها، وتصبح بعض القضايا المهمة في الظل، أوفي الدرجات السفلى من الاهتمامات، بسبب الصراعات والمعارك الجانبية ذات الأهداف المحددة، أو الغايات السياسية المخططة، وكان أهل البيت (عليهم السلام) يعطون الأهمية في هذه القضايا لأمور ذات العلاقة بمصالح الأمة الكبرى، وبهذا الصدد يمكن أن نشير الى عدة نماذج وأمثلة لهذه الاهتمامات في عهود الأئمة من أهل البيت المختلفة.

فالقضية الكبرى التي واجهها الإمام الحسين (عليه السلام) - على ما أشرنا سابقاً - هي قضية تعرض العقيدة الإسلامية الى الخطر، أو على الأقل تعرض قضية الحكم الإسلامي الى الخطر حيث أن تنصيب يزيد بهذه الطريقة كان يعني على أقل تقدير خطر تحول الحكم الإسلامي من الحكم الالهي واقامة العدل بين الناس الى الحكم الكسروي والقيصري، الذي يكون الحكم فيه للطاغوت وللهوى والرأي.

وهذه قضية كبرى وخطيرة أدركها جميع المسلمين المخلصين في ذلك العصر وفي مقدماتهم كبار الصحابة والتابعين أمثال عبد الله بن عباس وعبد الله ابن الزبير وعبد الله بن جعفر وعبد الرحمن بن أبي بكر وغيرهم.

ولكن الإمام الحسين (عليه السلام) هو الشخص الوحيد الذي تحمّل مسؤولية النداء بهذه القضية والمواجهة بها، لما كان يتميز به من خصائص موضوعية وتاريخية، وبالأخص نسبته إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) والارتباط الوثيق بالرسالة الإسلامية وغير ذلك من الموصفات.

فهذه القضية كانت من القضايا الكبرى التي تهم المسلمين، وتحمل الحسين (عليه السلام) فيها المسؤولية نيابة عن المسلمين جميعاً، وهذا الأمر هو الذي يفسر لنا الاجماع المطلق لدى المسلمين في جميع العصور على تأييد نهضة الإمام الحسين (عليه السلام)، بالرغم من الاختلاف الواسع لدى المسلمين في الاتجاهات السياسية والمذهبية، فهذا القبول المطلق لنهضة الحسين (عليه السلام) في جميع العهود الإسلامية، والادانة المطلقة لموقف يزيد من جميع علماء المسلمين، بالرغم من المحاولات التي بذلها الأمويون للتغطية والتعقيم على هذه الحقيقة... كل ذلك شاهد واضح على أنّ هذه القضية كانت من القضايا الكبرى التي تهم مصالح المسلمين جميعاً.

ونجد النماذج الأخرى في مواقف أئمة أهل البيت (عليه السلام) بعد الإمام الحسين (عليه السلام)، حيث كانت القضية الأخلاقية هي الأولى في عهد الإمام السّجاد (عليه السلام) بعد المآسي التي شهدها العالم الإسلامي في واقعة كربلاء والحرّة، والاعتداء على الحرم المكي الآمن، وبعد تحول ضمير الإنسان المسلم إلى ضمير يشترى بالدرهم والدينار وبزيادة العطاء بعيداً عن القيم والمثل الإسلامية، وتحول المراكز المقدسة كالمدينة ومكة، من مراكز يتنافس فيها الفقهاء والعلماء إلى مراكز يتنافس فيها شعراء المجون والمغنون والمغنيات والجوار والقينات، فكان هذا الابداع العظيم للإمام زين العابدين (عليه السلام) من خلال أساليب التربية ومنهاج الدعاء والمناجاة ودروس مكارم الاخلاق، والسلوك العرفاني العالي.

وكذلك موقف الإمام الباقر (عليه السلام) في احياء السنّة، ومدارسة الحديث، وتدوينه ونشره، ثمّ موقفه في القضية الاقتصادية الكبرى التي هزّت العالم الإسلامي، عندما تحدّى سلطان الروم الدولة الإسلامية بالتهديد بضرب السكّة بما يهين شعائر الإسلام، وكان النقد

السائد هو النقد الروماني، حيث اقترح الإمام الباقر (عليه السلام) على الخليفة الاموي أن تقوم الدولة الاسلاميّة بنفسها بضرب السكّة، وتحرير (النقد) الإسلامي من الهيمنة الأجنبية.

وموقف الإمام الصادق (عليه السلام) أمام القضية الكبرى للمسلمين التي واجهوها، وهي قضية الفلسفات اليونانيّة والرومانيّة والهنديّة التي غزت العالم الإسلامي مقرونة بالعلوم الطبيعّيّة (الطب، والهندسة، والفيزياء)، حيث أخذت هذه الفلسفات تبهر عقول المسلمين بما اقترنت به من أساليب للتنظير، ومن علوم طبيعّيّة حديثة، الأمر الذي نقارنه بما حصل للعالم الإسلامي من غزوللحضارة الغربيّة وفلسفاتها من خلال اقترانها بالعلوم الطبيعّيّة بسبب النهضة الصناعيّة، مع فارق واحد مهم، هو أنّ الدولة الاسلاميّة كانت في أوج قوتها في ذلك العصر بخلافه في العصر الحديث.

وقد تصدى الإمام الصادق (عليه السلام) لهذا التيار الالحادي ووضع جلّ نشاطه في ادامة الاهتمامات التي وضع بداياتها والده الإمام الباقر (عليه السلام) بالنسبة الى احياء السنّة، وفي مواجهة هذه التيارات الالحاديّة، وخصوصاً المجالات العلميّة، بحيث عرف عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه ملهم الكيمياء، وكان في مقدمة تلامذته في هذه المجالات جابر بن حيّان والمفضّل بن عمر وهشام بن الحكم وزرارة بن أعين ومحمد بن مسلم وغيرهم كثيرون.

كما كان للإمام موسى بن جعفر الكاظم (عليه السلام) دور عظيم في مواجهة الحياة السياسيّة ذات اللون التعددي الجديد في عهد هارون الرشيد، حيث اتسمت في بداية العهد بشيء من الحرّيّة الفكريّة والسياسيّة، حيث كانت الاهتمامات الكبرى للامّة في هذا العصر ترتبط بقضية مواصفات الحاكم وواجباته، وطبيعة علاقته بالامّة.

وهكذا الحال في عهد الإمام الرضا (عليه السلام) والإمام الجواد (عليه السلام)، حيث كانت قضايا اللاهوت التي طرحها علماء أهل الكتاب من خلال الندوات الفكريّة التي أوجدها المأمون، وقضايا استيعاب الشريعة للحوادث المستجدة والمعقدة نسبياً للحياة الاجتماعية الاسلاميّة في القضايا الكبرى للامّة.

وعندما نقارن بين هذه القضايا التي كانت موضع ومجال اهتمام أئمة أهل البيت (عليهم السلام) والقضايا الاخرى التي كانت تثير اهتمامات ونزعات معقدة بين المسلمين، مثل قضية خلق القرآن أو قضية تقديم المفضول على الفاضل، أو قضية الارجاء في العقاب أو قضية الكفر والفسق، أو قضية القدر التي كانت تأخذ أبعداً واسعة من الخلاف والنزاع، وتتطور

الى وسائل قمع واضطهاد، نجد الفرق واسعاً بين هذا النوع من الاهتمامات الجزئية وتلك القضايا الكبرى.

ولا شك أنّ الاهتمام بالقضايا الكبرى للامة يشكل أحد دعائم الوحدة الاسلاميّة، حيث يمكن أن تجتمع الامة بشكل عام على مثل هذه القضايا التي تشعر بالعلاقة والرابطة بينها وبين مصالحها ووجودها.

المعلم الثالث: التعايش الاجتماعي بين جماعات المسلمين

انّ من أهم أساليب تحقيق الوحدة بين المسلمين هو وضع أسس وأساليب للتعايش الاجتماعي بينهم على اختلاف قومياتهم وشرائعهم ومذاهبهم واتجاهاتهم السياسيّة والعقائديّة.

وقد دعى أهل البيت(عليهم السلام) - في نظريتهم للوحدة - الى هذا الأمر، بشكل خاص، فقد أكد أهل البيت(عليهم السلام) على الغاء الفوارق القوميّة والقبلية والاجتماعيّة بين فئات المجتمع، والذي نجده في أحاديثهم بشكل واضح وواسع، حيث يأتي هذا التأكيد انسياقاً مع النظرية القرآنيّة في الغاء هذه الفوارق اجتماعياً، بل الانطلاق منها للمزيد من التعارف والوحدة:

(يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا انّ أكرمكم عند الله اتقاكم...)(٢٤٩).

ولم يكتف أهل البيت(عليهم السلام) بهذا التأكيد على المفاهيم والمثل الأخلاقيّة بالكلام والحديث والتوجيه، بل انهم مارسوا ذلك عملياً في سلوكهم والتزاماتهم، وفي التعامل مع أصحابهم وحواريهم وخاصتهم، تأسيساً برسول الله (صلى الله عليه وآله)، حتى يمكن القول بأنّ هذا السلوك والسياسة كان لها دور عظيم في حفظ وحدة المسلمين وعدم تحوّل الحكم الإسلامي الى حكم قومي، يميز بين العرب والأعاجم أو بين العرب والموالي، أو بين بعض القبائل، وغيرها، حيث تعرض المجتمع الإسلامي مثل هذه الأعاصير، وقد ابتلى بمثل هذه السياسات التي مارسها الامويون بشكل خاص، وكان لها بعض الجذور في بعض الممارسات في عصر الخلافة الراشدة وكذلك كان لهم وجود في بعض أدوار العصر العبّاسي، خصوصاً في الدور الأول منه.

ولعل اتهام جميع شيعة أهل البيت(عليهم السلام) (بالعجمية) التي يرميهم بها أعداؤهم، تنطلق من طبيعة تعايش أهل البيت(عليهم السلام) روحياً ونفسياً مع الأمم التي دخلت الإسلام بعد العرب في اطار المساواة وعدم التمييز، بحيث كان يجد هؤلاء المسلمون الجدد في أهل البيت(عليهم السلام) هذه الروح الرحبة والملجأ والملاذ الآمن والفهم الصحيح للإسلام فيتجاوبون معه، وإلا فإنّ أهل البيت(عليهم السلام) من صلب العرب والعروبة والكثير من أصحابهم من القبائل العربية المعروفة، ونسبة شيعتهم في العرب لا تقل عن نسبة شيعتهم في الأعاجم ان لم تزيد، ولكن هذا الذي ذكرنا انما هو في اطار النظرة الكلية للاختلافات العرقية أو القبلية أو الاجتماعية بين المسلمين، وفي هذا الاطار لا نكاد نجد فرقاً بين نظرية أهل البيت(عليهم السلام) وغيرهم على المستوى النظري، حيث يجمع المسلمون على هذه النظرية الكلية، وانما الفرق في التأكيد والاهتمام، وفي السلوك والمعاملة التي امتاز بها أهل البيت(عليهم السلام) بشكل واضح.

التعايش الاجتماعي بين أبناء المذاهب الإسلامية

المهم في هذا البحث هو اهتمام أهل البيت(عليهم السلام) بقضية التعايش بين المسلمين فيما يتعلق بقضية الاختلافات المذهبية، والتي يكون لها انعكاسات وتأثيرات على المستوى الاجتماعي والسياسي، حيث اكد أهل البيت(عليهم السلام) على ضرورة هذا التعايش وأهميته، ودعوى شيعتهم الى تحقيقه، انطلاقاً من عدة أفكار أساسية:

الاولى: الفكرة الاجتماعية التي تقول بحاجة المجتمع الانساني - من أجل تكامله - الى تعاون بعضه مع البعض الآخر، ورفض فكرة العزلة والانطواء، أو التجزئة والانقسام في المجتمع.

الثانية: ضرورة شعور الإنسان بالمسؤولية تجاه المجتمع ووفاءه وبالالتزامات الاجتماعية القانونية أو الروحية والعاطفية أو الاخلاقية، هذه المسؤولية والالتزامات التي تحفظ وحدة المجتمع، وتزيد من قوته وقدرته على مواجهة المشكلات.

الثالثة: ضرورة المساهمة في تطوير المجتمع وتكامله من خلال التأثير ايجابياً عن طريق السلوك الأخلاقي الراقى، والمعاملة الطيبة والقوة والاسوة الحسنة.

ونجد جذور مثل هذه الأفكار أو مفاهيمها بشكل واضح في أحاديث أهل البيت(عليهم السلام) التي تحدثت عن هذا التعايش.

ولذا جاءت دعوة أهل البيت (عليهم السلام) للتعايش الاجتماعي دعوة شاملة لمختلف المجالات والأبعاد ذات العلاقة بالحياة الاجتماعية للمسلمين، سواء كانت قوانين والتزامات، أو مسؤوليات دينية وأخلاقية، أو ممارسات وشعائر عبادية، أو علاقات عائلية ورحمية، أو مجاملات وآداب اجتماعية، أو مشاعر وعواطف روحية وإنسانية ويمكن أن نجد ذلك واضحاً في النصوص الصحيحة والكثيرة التي وردت عن أهل البيت (عليهم السلام)، والتي سوف نكتفي بالإشارة إلى نماذج منها، ويمكن الرجوع إليها في المصادر الحديثة الواسعة.

أ - روى الكليني في الكافي بسند صحيح عن أبي اسامة زيد الشحام قال: «قال لي أبو عبد الله (عليه السلام): اقرأ على من ترى أنه يطيعني منهم ويأخذ بقولي السلام، وأوصيكم بتقوى الله عز وجل والورع في دينكم والاجتهاد لله وصدق الحديث وأداء الأمانة وطول السجود وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد (صلى الله عليه وآله)، وأدوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها براً أو فاجراً، فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يأمر بأداء الخيط والمخيطة.

صلوا عشائركم، واشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وأدوا حقوقهم، فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق الحديث وأدى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس قيل: هذا جعفري، فيسرني ذلك ويدخل عليّ منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر، وإذا كان على غير ذلك دخل على بلاؤه وعاره، وقيل هذا أدب جعفر، والله لحدثني أبي (عليه السلام) أن الرجل كان يكون في القبيلة من شيعة علي فيكون زينها أداهم للأمانة وأقضاهم للحقوق وأصدقهم للحديث، إليه وصاياهم وودائعهم، تسأل العشيرة عنه فتقول: ممن مثل فلان أنه أدانا للأمانة وأصدقنا للحديث» (٢٥٠).

ب - وأيضاً بسند صحيح عن معاوية بن وهب قال: قلت لأبي عبد الله الصادق (عليه السلام) كيف ينبغي لنا أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا، وفيما بيننا وبين خلطانا من الناس؟ قال: فقال (عليه السلام): تؤدون الأمانة اليهم وتقيمون الشهادة لهم وعليهم، وتعودون مرضاهم، وتشهدون جنائزهم» (٢٥١).

ج - وأيضاً بسند صحيح عن معاوية بن وهب قال قلت له: (الصادق (عليه السلام)) كيف ينبغي أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا وبين خلطانا من الناس ومن ليسوا على أمرنا فقال (عليه

(٢٥٠) الوسائل: أبواب أحكام العشرة، الباب الأول، الحديث الثاني.

(٢٥١) الوسائل: أبواب أحكام العشرة الباب الأول، ح ١ .

السلام) : تنظرون الى أنتمكم الذين تقتدون بهم فتصنعون ما يصنعون فو الله انهم ليعودون مرضاهم، ويشهدون جنازهم، وقيمون الشهادة لهم وعليهم، ويؤدون الأمانة لهم»^(٢٥٢).

د - وفي رواية أخرى للكليني في الكافي بسند صحيح عن حبيب الحنفي قال: سمعت أبا عبد الله (الصادق عليه السلام) يقول: عليكم بالورع والاجتهاد واشهدوا الجنائز وعودوا المرضى، واحضروا مع قومكم مساجدهم، وأحبوا للناس ما تحبون لانفسكم، أما يستحي الرجل منكم أن يعرف جاره حقه ولا يعرف حق جاره»^(٢٥٣).

هـ - وبسند صحيح عن مرزم قال: قال أبو عبد الله (الصادق عليه السلام): عليكم بالصلاة في المساجد، وحسن الجوار للناس، واقامة الشهادة، وحضور الجنائز، انه لا بد لكم من الناس، ان أحداً لا يستغني عن الناس في حياته، والناس لا بد لبعضهم من بعض»^(٢٥٤).

فان هذه النماذج - وغيرها كثير - تناول التفاصيل التي ترتبط ببعض الواجبات والمستحبات، واصول المعاشرة العامة، والذي يؤكد أهمية التعايش والمعاشرة في هذا المستوى، فضلا عن المستويات الاخرى التي تخص بالاولوية واللزوم بالنسبة لها.

ويوضح الإمام الخط العام الذي يجب أن ينتهجه شيعتهم في المعاشرة من خلال النص التالي، الذي يرويه أبو ربيع الشامي قال: «دخلت على أبي عبد الله (عليه السلام) والبيت غاص بأهله، فيه الخراساني والشامي ومن أهل الآفاق، فلم أجد موضعاً أقعد فيه فجلس أبو عبد الله وكان متكياً، ثم قال: يا شيعة آل محمد اعلّموا انه ليس منا من لم يملك نفسه عند غضبه، ومن لم يحسن صحبة من صحبه، ومخالفة من خالفه، ومرافقة من رافقه، ومجاورة من جاوره، وممالحة من مالحه، اتقوا الله ما استطعتم ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(٢٥٥).

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: «انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»^(٢٥٦).

وأيضاً في رواية أخرى عن أبي عبد الله (الصادق عليه السلام) قال: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع»^(٢٥٧) حيث يؤكد الائمة في بعض هذه النماذج على مسألة تمثل الاسوة والقُدوة في السلوك الاخلاقي العالي.

(٢٥٢) المصدر السابق، ح: ٣.

(٢٥٣) المصدر السابق، ح: ٤.

(٢٥٤) المصدر السابق، ح: ٥.

(٢٥٥) الوسائل: أبواب أحكام العشرة باب ٢، ح: ٣.

(٢٥٦) المصدر السابق: باب: ١٠٧، ح: ٨.

وفي كتاب العشرة نجد تفاصيل شاملة وواسعة ودقيقة لأساليب هذا التعايش ومنهج تحقيقه يمكن مراجعتها في كتاب وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة.

ولعلّ من أروع النصوص في هذا الموضوع ما ورد في وصية الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) لابنه محمد بن الحنفية والتي رواها الصدوق في كتابه (من لا يحضره الفقيه): «وأحسن الى جميع الناس كما تحب أن يحسن اليك، وارض لهم ما ترضاه لنفسك، واستقبح لهم ما تستقبحه من غيرك، وحسن مع الناس خلقك، حتى إذا غبت عنهم حنوا اليك، وإذا مت بكوا عليك، وقالوا «إنا لله وإنا اليه راجعون» ولا تكن من الذين يقال عند موته «الحمد لله رب العالمين»، واعلم أنّ رأس العقل بعد الايمان بالله عزّ وجل مداراة الناس، ولا خير فيمن لا يعاشر بالمعروف من لابد من معاشرته، حتى يجعل الله الى الخلاص منه سبيلا، فاني وجدت جميع ما يتعايش به الناس وبه يتعاشرون ملؤ مكيال ثلثاه استحسان وثلثه تغافل»^(٢٥٨) كما أنّ الصورة التي يقدمها أحد العلماء المعروفين من أهل السنة وهو الزهري عن اسلوب الائمة في التعايش الاجتماعي عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) لها دلالات واسعة في هذا المجال:

«عن سفيان بن عينية قال: قلت للزهري: لقيت علي بن الحسين؟» قال: نعم لقيتنه، وما لقيت أحداً أفضل منه، وما علمت له صديقاً في السر ولا عدواً في العلانية، فقليله له: وكيف ذلك؟ قال: لأنني لم أر أحداً وان كان يحبه إلا وهو لشدة معرفته به يحسده، ولا رأيت أحداً وان كان يبغضه إلا وهو لشدة مداراته له يداريه»^(٢٥٩).

وذيل الحديث مصداق لقوله تعالى: (فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)^(٢٦٠).

المعلم الرابع: التقية

تشكل التقية في نظرية أهل البيت (عليه السلام) معلماً من المعالم المهمة في فهم الحياة السياسية والاجتماعية، وقد وردت فيها عشرات الروايات ذات القيمة العالية من حيث السند والمضمون والسعة والشمول، ويحتاج هذا الموضوع الى بحث واسع، سواء على المستوى السياسي والاجتماعي، أو على المستوى الفقهي، ولكن سوف نتناول هذا الموضوع بالبحث هنا بشكل مختصر يتناسب مع بحثنا هذا.

(٢٥٧) نفس المصدر: باب: ١٠٨، ح: ١.

(٢٥٨) الوسائل: أبواب أحكام العشرة باب ١٢١، ح: ٨.

(٢٥٩) الوسائل: ب ١٢٠، ح: ١٠.

(٢٦٠) فصلت: ٣٤.

قيمة «التقية» في نظرية أهل البيت (عليهم السلام)

من خلال الروايات التي وردت عن أهل البيت (عليهم السلام) والتي تتحدث عن التقية، نجد أنّ هذا المنهج في نظر أهل البيت (عليهم السلام) يرتبط بقضايا أساسية في الدين، بحيث تأخذ حيّزاً واسعاً من الدين والالتزام بالنسبة إلى الإسلام، فقد ورد في بعض الروايات عن أبي جعفر (عليه السلام): «إنّ التقية ديني ودين آبائي ولا إيمان لمن لا تقية له»^(٢٦١).

كما ورد في رواية أخرى عن أبي عمر الأعجمي أنّ الصادق (عليه السلام) قال له: «يا أبا عمر إنّ تسعة أعشار الدين التقية، ولا دين لمن لا تقية له»^(٢٦٢).

ويبدو أنّ المراد من (الدين) هنا هو الالتزام بالعهود والمواثيق والأحكام، كما يمكن أن يستفاد من قول الصادق (عليه السلام) في رواية أخرى: «لا دين لمن لا تقية له، ولا إيمان لمن لا ورع له»^(٢٦٣).

كما أنه يمكن أن نفهم مدى أهمية التقية وقيمتها من خلال الآثار والنتائج التي وصفها الأئمة بازاء التقية، فقد روى محمد بن الحسن الصفار في كتابه (بصائر الدرجات) بسند صحيح عن المعلى بن خنيس قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): «يا معلى اكنم أمرنا ولا تدعه، فأنه من كنم أمرنا ولا يذيعه أعزّه الله في الدنيا، وجعل له نوراً بين عينيه يقوده إلى الجنة.

يا معلى من أذاع أمرنا ولم يكتمه أذله الله به في الدنيا، ونزع النور من بين عينيه في الآخرة، وجعل له ظلمة تقوده إلى النار.

يا معلى إنّ التقية ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له، يا معلى إنّ الله يحب أن يعبد في السر كما يعبد في العلانية، والمذيع لأمرنا كالجاحد له»^(٢٦٤).

وفي الكافي عن عبد الله بن أبي يعفور عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: «اتقوا على دينكم واحجبوه بالتقية فانه لا إيمان لمن لا تقية له، إنّما أنتم من الناس كالنحل في الطير، ولو أنّ الطير يعلم ما في أجواف النحل ما بقي منها شيء إلا أكلته، ولو أنّ الناس علموا ما في أجوافكم انكم تحبون أهل البيت (عليهم السلام) لاكلوكم بألسنتهم ولنحلوكم بالسر والعلانية، رحم الله عبداً منكم كان على ولايتنا»^(٢٦٥) وبهذا التقويم

(٢٦١) الوسائل: ج: ١١، ص: ٤٦٠، ح: ٣.

(٢٦٢) الوسائل: ج: ١١، ص: ٤٦٠، ح: ٢.

(٢٦٣) الوسائل: ج: ١١، ص: ٤٦٥، ح: ٢٢.

(٢٦٤) الوسائل: ج: ١١، ص: ٤٦٥، ح: ٢٣.

(٢٦٥) الوسائل: ج: ١١، ص: ٤٦١، ح: ٧.

للتقية يمكن أن نفهم أنّ التقية تمثل أساساً ومنهجاً للسلوك الاجتماعي والسياسي مع الناس، فإنّ أهل البيت (عليه السلام) حينما دعوا شيعتهم وأتباعهم للاختلاط بالناس، والتفاعل معهم، والتلاحم مع وجودهم ومجتمعهم وحكوماتهم، كما عرفنا ذلك في المعلم السابق، وهم في نفس الوقت الذي يدركون الأخطار التي سوف تواجهها هذه الجماعة بسبب الاختلافات العقائدية والسياسية والمذهبية بينهم وبين هؤلاء الناس، حيث كانت القضية الدينية هي محور كل هذه الاهتمامات في ذلك العصر، لم يكن أمامهم إلا أن يضعوا منهجاً لشيعتهم وأتباعهم يعالجون فيه هذه الأخطار والآثار المترتبة على هذه المعاشرة، فكان هذا المنهج هو «التقية».

ومن أجل أن يؤكد أهل البيت (عليهم السلام) أنّ هذا المنهج ليس معالجة آنية محدودة بوقت معين أو بظروف خاصة، بل هو منهج ثابت وعام، جاء هذا التقويم لهذه التقية، وأعطوها هذه القيمة المهمة.

علاقة التقية بموضوع الوحدة

وهنا يطرح هذا السؤال وهو أنّه لماذا اختار أهل البيت (عليهم السلام) التقية؟ وما هو الهدف منها بشكل محدود؟ وما هو مضمونها؟ وقد أجاب أهل البيت (عليهم السلام) عن هذا السؤال ونظائره من الاسئلة التي تثار حول القضية.

فقد كان أمام أهل البيت (عليهم السلام) عدة خيارات تجاه علاقة شيعتهم وأتباعهم، وهم يمثلون النخبة القليلة في المجتمع الإسلامي الذي يعبر عنه أهل البيت (عليهم السلام) بـ «الناس» و«العامة» خصوصاً في القرون الأولى للتاريخ الإسلامي.

الخيار الأول:

دعوة أتباعهم الى الانعزال والانكفاء على النفس، واللجوء الى الجبال والغابات وغيرها من المناطق البعيدة عن تناول السلطة والاحتكاك بالناس، والتخندق هناك من أجل المحافظة على دينهم وعقيدتهم ومبدئهم والجهر به.

وهذا الخيار لم يرض به أهل البيت (عليهم السلام) كما عرفناه في الأبحاث السابقة للأسباب التي اشير اليها سابقاً، لانهم بحاجة الى الناس، ولأنّ لهم دوراً في التأثير وابلغ الرسالة والحق لهؤلاء الناس، ولو عن طريق القدوة الحسنة، ولأنهم لا بدّ أن يتحملوا مسؤولية الدفاع

عن العقيدة الإسلامية والكيان السياسي للإسلام والامة الاسلاميّة، ويساهموا عملياً في ذلك، وغير ذلك من الاسباب.

الخيار الثاني:

الدخول في مواجهة علنية ومستمرة مع الناس في جميع تفاصيل الحياة الإسلامية، أوفي خصوص القضايا الأساسية منها كقضية الولاية والحكم والشعائر العباديّة، وبعض تفاصيل العقيدة المهمة.

وهذا الخيار سوف يؤدي بطبيعة الحال امّا الى استئصال الجماعة الصالحة من أتباعهم، ووقوع البقية الباقية منهم في الانحراف وتغيير مذهبهم والتزاماتهم، تحت تأثير القمع والمطاردة والارهاب، وهذا الاحتمال هو الذي كان يراه أهل البيت(عليهم السلام) راجحاً في تحليلهم السياسي والاجتماعي للأوضاع السياسيّة، والذي أشارت اليه بعض النصوص السابقة، وخصوصاً روايتا ابن أبي يعفور والمعلّى بن خنيس السابقتين، ويؤكدّه أيضاً ما ورد من قول أبي جعفر الباقر(عليه السلام): «وَأَيُّ شَيْءٍ أَقْرَ لِعَيْنِي مِنَ التَّقِيَّةِ، إِنَّ التَّقِيَّةَ جَنَّةُ الْمُؤْمِنِ»^(٢٦٦).

أوالرواية الصحيحة الأخرى عن الصادق (عليه السلام) «التقية ترس المؤمن، والتقية حرز المؤمن، ولا إيمان لمن لا تقية له... ان العبد ليقع اليه الحديث من حديثنا فيدين الله عزّوجلّ به فيما بينه وبينه، فيكون له عزاً في الدنيا ونوراً في الآخرة، وإنّ العبد ليقع اليه الحديث من حديثنا فيذيعه فيكون له ذلاً في الدنيا، وينزع الله ذلك النور منه»^(٢٦٧).

والاحتمال الآخر هو تمكن الجماعة من الصمود والبقاء والاستمرار، وهذا مما يؤدي حتماً الى انعزال الجماعة، وايجاد الاضطراب وعدم الاستقرار، والتجزئة والانقسام في المجتمع الإسلامي، وهذا ممّا لا يسنجم مع الخط الذي رسمه أهل البيت(عليهم السلام) في التعايش الاجتماعي مع المسلمين من الناس حتماً.

الخيار الثالث:

هو التقية، ومن خلال ملاحظتنا ونقدنا للخيارين السابقين، نجد أنّه لا مناص من التزام منهج التقية لا خوفاً ولا جبناً بل انطلاقاً من مبدأ التعايش الاجتماعي الذي أگده أهل

(٢٦٦) الوسائل: ج ١١، ص: ٤٦٠، ح: ٤.

(٢٦٧) الوسائل: ج ١١، ص: ٤٦٠، ح: ٦، وقد أخرجه عن الاصول وذيله في الهامش.

البيت(عليهم السلام)، وإلا فإن شيعة أهل البيت(عليهم السلام) هم أهل التضحية والفداء والصبر والصمود والتحمل، الذين تربّوا في مدرسة علي (عليه السلام) والحسن والحسين وأولادهم، ولعل الذي يؤيد هذا الفهم هو هذا التأكيد الصادر من أهل البيت(عليهم السلام) على أهمية التقيّة ودعوة شيعتهم الى التمسك بها، مع أنّ التقيّة حالة نفسية طبيعّية في النفس البشريّة، يتجه اليها الإنسان عندما يحس بالخطر، ويشعر بتصاعد نسبة احتمالات الأذى والضرر.

لأنّ شيعة أهل البيت(عليهم السلام) قد تربّوا على المعارضة والمواجهة والصبر والصمود والتضحية والفداء والاستعداد لتحمل مختلف ألوان الأذى والضرر في سبيل المبدأ والعقيدة، الأمر الذي يجعل تأثير الحالة النفسية الطبيعية تأثيراً محدوداً تتجاوزه التربية العقائدية والمبدئية لشيعتهم وأتباعهم، الأمر الذي يفرض وجود الحاجة الى تربية عقائدية ومبدئية مماثلة توازن تلك الحالة الروحية والمعنوية العالية، وهذا المعنى يبدو واضحاً جلياً من خلال لغة التأكيد والتهديد والوعيد التي استخدمها أئمة أهل البيت(عليهم السلام) في الدعوة الى التقيّة.

كما أنّ الذي يوضح هذا الفكرة بشكل أكثر هو أننا نجد أهل البيت(عليهم السلام) لم يضعوا منهج التقيّة لمعالجة حالات الخطر والضرر فحسب، بل وضعوا هذا المنهج بشكل أوسع وأشمل، الأمر الذي يعني أنّ المنطلق في ذلك هو مبدأ (التعايش الاجتماعي)، والمحافظة على وحدة المجتمع الإسلامي وتماسكه وقوته من ناحية، وإيجاد الفرصة لتكامل هذا المجتمع من خلال تأثير وحركة هذه الجماعة الصالحة فيه من ناحية أخرى.

نظرة عامة ومتكاملة لمنهج التقيّة

ولتوضيح هذا الأمر، واستكمالاً لتكوين نظرة عامة متكاملة عن منهج التقيّة، يحسن بنا أن نشير الى الموارد التي ذكرها أهل البيت (عليه السلام) لاستخدام اسلوب التقيّة وعلاقتها بقضية الخوف والقمع.

ومن خلال المراجعة السريعة لأخبار التقيّة يمكن أن نتبيّن أنّ هناك موراداً ومجالات ثلاثة عامة وأساسيّة يتم استخدام التقيّة فيها ذكرها أهل البيت(عليهم السلام).

الأول: تعرّض الإنسان الى الخطر أوالضرر

بسبب اتهامه بالتزامات عقائدية وسياسية أو سلوكية، ترتبط بهذه العقائد والمتبنيات، حيث وردت النصوص بوجوب «التقية» في مثل هذه الموارد، دفعاً لهذه الأخطار والأضرار.

و«التقية» هنا تعني أن يظهر الإنسان التزاماً بعقيدة أو سلوكاً على خلاف الواقع، تخلصاً من محاولات القمع والارهاب التي يبدؤها سوف يتعرض لها إذا لم يفعل ذلك، وقد أكد أهل البيت (عليهم السلام) وجوب التقية هنا ومشروعيتها، من خلال الاستشهاد بما ورد في قضية عمّار بن ياسر عندما أكره على البراءة من رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الفترة المكيّة من تاريخ الدعوة الإسلامية، والتي أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى: (من كفر بالله بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) (٢٦٨).

كما يستشهد في الروايات بقصة أهل الكهف الذين أظهروا الشرك بالله فترة من الزمن، وأسروا الإيمان حتى جاءهم الفرج، ومن الواضح أنّ هذا الموقف ليس نفاقاً أو كذباً أو كفوفاً بالله تعالى مخالفة لأحكامه، بل هو ضرورة تفرضها الأخطار التي تواجه الإنسان، أو الأضرار التي يخافها، حيث يقع التزاحم بين الأهم والمهم من هذه المصالح، فيقدم الأهم منها وهو دفع الضرر عن نفسه، ومن الواضح أنّ هذه الأضرار إنّما هي ذات طابع شخصي، والموقف يتسم بهذا الطابع الشخصي أيضاً.

وقد وردت نظائر في الشريعة تؤكد هذا الاتجاه، وذكرها لايراد منه الاستدلال والقياس، وإنما تقريب الفكرة إلى الأذهان، فأكل الميتة حرام في الشريعة، ولكن عندما يضطر الإنسان إليه يصبح حلالاً بقدر هذا الاضطرار، كما صرح القرآن الكريم بذلك، كما أنّ الحديث الشريف نصّ على الرخصة في موارد الاضطرار في قوله (صلى الله عليه وآله): رفع عن أمتي تسع وذكر ما اضطرّوا إليه» (٢٦٩)،

وفي قوله تعالى (وما جعل عليكم في الدين من حرج) (٢٧٠)، وكذلك في حديث «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام» (٢٧١)، الذي يعتبره الفقهاء من القواعد المهمة التي يطبقونها في موارد نفي الأحكام الشرعية الثابتة إذا كانت «ضرورية» أو «حرجية»، إلا إذا كان الحكم الشرعي بطبيعته ضرري أو حرجي، كالجهد في سبيل الله، أو الانفاق في سبيل الله، أو غيرهما من الموارد.

(٢٦٨) النحل: ١٠٦.

(٢٦٩) الوسائل كتاب الأمر والنهي باب ٢٥، ح: ١٠.

(٢٧٠) الحج: ٧٨.

(٢٧١) الوسائل ج ١٧، ص: ٣٧٦.

وفي هذا المجال نجد أهل البيت (عليهم السلام) يضعون حداً وسقفاً لاستخدام التقية وهو ما اذا كانت التقية تؤدي الى الاضرار بالآخرين، وسفك دمائهم، أوتعرضهم للأخطار، كما في قول الإمام الباقر (عليه السلام) في حديث معتبر «إنما جعل التقية ليحقق بها الدم فاذا بلغ الدم فليس تقية»^(٢٧٢).

وكذلك اذا كانت التقية تؤدي الى التهاون في نصره الإسلام والمسلمين التي تفرضها موازين الجهاد في سبيل الله فانها تصبح غير مشروعة ولا مبررة، فقد ورد في الحديث المعتبر عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: «لم تبق الارض إلا وفيها منّا فاذا بلغت التقية الدم فلا تقية، وإيم الله لو دعيتم لتتصرونا لاتفعل انما نتقي!!، ولكانت التقية أحب اليكم من آباتكم وامهاتكم، ولو قد قام القائم ما احتاج الى مسانلتكم عن ذلك، ولأقام في كثير منكم من أهل النفاق حدّ الله»^(٢٧٣).

وفي حديث آخر يقدم الإمام من أهل البيت (عليهم السلام) القاعدة العامة لهذه التقية «لأنّ للتقية مواضع من أزالها عن مواضعها لم تستقم له، وتفسير ما يتقى: مثل أن يكون قوم سوء ظاهر حكمهم وفعلهم على غير حكم الحق وفعله، فكل شيء يعمل المؤمن بينهم لمكان التقية مما لا يؤدي الى الفساد في الدين فانه جائز»^(٢٧٤).

كما انه ورد التأكيد من أهل البيت (عليهم السلام) على أنّ الإنسان يجب عليه ان يبذل ماله ونفسه دون دينه^(٢٧٥).

وقد ترك أهل البيت (عليهم السلام) تقدير الضرر في هذا النوع من التقية الى الاشخاص أنفسهم، فقد ورد في الحديث عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام): «التقية في كل ضرورة وصاحبها أعلم بها حين تنزل به»^(٢٧٦). و «التقية في كل شيء يضطر اليه ابن آدم فقد أحله الله له».

ولكن شددوا في التقيد بالضرر، وعدم التهاون، ولذلك نجد أهل البيت (عليهم السلام) يستثنون بعض الموارد من التقية لأنهم يشخصون أنّ الضرورة فيها ليست بالمستوى الذي تسمح لهذا الإنسان ان يترك الواجب أويخالف النواهي والشروط الشرعية، فقد روى الكليني في الكافي بسند صحيح عن زرارة بن أعين قال: «قلت له (الصادق (عليه السلام)) في مسح الخفين تقية؟ فقال: ثلاثة لا أتقي فيهنّ أحداً شرب المسكر، ومسح الخفين، ومتعة الحج، قال زرارة: ولم يقل الواجب عليكم أن لا تتقوا فيهنّ أحداً»^(٢٧٧).

(٢٧٢) الوسائل: ج: ١١، ص: ٤٨٣، ح: ١.

(٢٧٣) الوسائل: ج: ١١، ص: ٤٨٣، ح: ٢.

(٢٧٤) الوسائل: ج: ١١، ص: ٤٦٩، ح: ٦.

(٢٧٥) الوسائل: ج: ١١، ص: ٤٥١، ح: ٢، وص: ١٣٩، ح: ٢.

(٢٧٦) الوسائل: ج: ١١، ص: ٤٦٨، ح: ٢.

وفي كتاب الاحتجاج للطبرسي في رواية عن الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) «أنَّ الرضا (عليه السلام) جفا جماعة ممن الشيعة وحجبهم، فقالوا: يا ابن رسول الله، ما هذا الجفا العظيم والاستخفاف بعد الحجاب الصعب؟ قال لدعواكم أنكم شيعة أمير المؤمنين (عليه السلام)، وأنتم في أكثر أعمالكم مخالفون ومقصرون في كثير من الفرائض، وتهانون بعظيم حقوق اخوانكم في الله وتتقون حيث لاتجب التقية، وتتركون التقية حيث لابد من التقية»^(٢٧٨).

الثاني: كتمان الأسرار

وحجبها عن الأعداء أو المتربصين أو الطغاة أو الغوغاء من العامة الذين ينعمون مع كل ناعق، ويميلون مع كل ريج، ولا شك أنَّ الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) وشيعتهم وأتباعهم كانوا يبثون أفكاراً، ويلتزمون بعقائد وسياسات تعرضهم لمختلف ألوان الاضطهاد والقمع لو تمَّ الكشف عنها أو الالتزام بها، وفي مقدمتها نظريتهم في الخلافة والولاية، فانهم كانوا يرون أنَّ الخلافة والولاية بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) إنما هي لعلي (عليه السلام) بالنص من قبل النبي (صلى الله عليه وآله) على ذلك، كما كانوا يرون في الخليفة شروطاً ومواصفات لا تنطبق على الخلفاء الذين كانوا يعاصرونهم، خصوصاً في زمن الامويين والعباسيين الذين كانوا يمارسون ألواناً من الظلم والاستهتار ويتصفون بالانحراف في السلوك والسياسات، كما انهم في مذهبهم في العقائد والفقه كانوا يأخذون عن القرآن الكريم ورسول الله (صلى الله عليه وآله) والسلسلة الذهبية المتمثلة بعلي (عليه السلام) وأولاده الطاهرين، بخلاف عامة المسلمين الذين كانوا يأخذون عن الصحابة بشكل عام دون تمييز بعضهم عن البعض الآخر مع اختلاف الصحابة في التقوى والفهم والمعرفة والأخذ عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، بل كان عامة المسلمين لا يقتصر في ذلك على الأخذ من الصحابة، بل كانوا يأخذون من المجتهدين والحكام وما تروجه السلطة من عقائد وأحكام.

وبذلك أصبح لأهل البيت (عليهم السلام) واتباعهم خط سياسي وثقافي ومذهبي يدلّ على وجودهم وحركتهم، يتوجس منه الحكام والظالمون وأعدائهم والملتزمون بسياساتهم، ويحرضون عليه العامة من الناس، بالإضافة الى فئات الحساد والمنافسين وورثة الأحقاد والعداوات، وقد مارس الحكام - بالفعل - ألواناً من الاضطهاد والقمع والمطاردة والمراقبة

(٢٧٧) الكافي: الباب ٣٨ من أبواب الوضوء، ح: ١، والباب ٢٢ من أبواب الاشرية المحرمة، ح: ١.

(٢٧٨) الوسائل: ج: ١١، ص: ٤٧٠، ح: ٩.

والاحصاء للأنفاس بسبب المواجهات التي حصلت في العالم الإسلامي، وكان النهوض والثورة وانتفاضات الإصلاح والاحتجاج والرفض للظلم والاضطهاد منذ زمن الانتفاضة على الخليفة الثالث (عثمان) وحتى ملحمة كربلاء ومقتل الحسين (عليه السلام) ثم مصارع الكرام من أهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله) من آل الإمام الحسن (عليه السلام) والإمام الحسين (عليه السلام) في زمن الامويين والعباسيين.

كل ذلك وضع أتباع أهل البيت (عليهم السلام) في الخيارات السابقة الثلاثة التي أشرنا إليها، وجعل كل تصرف أو سلوك لهم تحت الرقابة ويؤثر الى طبيعة التزاماتهم وعقائدهم، فدعا أئمة أهل البيت (عليهم السلام) شيعتهم الى التستر والكتمان لهذه المؤشرات، واكدوا من أجل الحفاظ على الجماعة الصالحة من جهة، ووحدة المسلمين واستقرار المجتمع الإسلامي من جهة اخرى على هذا الكتمان الذي سموه بالتقية أيضاً.

فقد روى الكليني في الكافي بسند صحيح عن سليمان بن خالد عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): «يا سليمان انكم على دين من كتبه أعزّه الله ومن أذاعه اذله الله»^(٢٧٩).

«وعن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: «وددت والله اني افديت خصلتين في الشيعة لنا ببعض لحم ساعدي: النزق وقلة الكتمان»^(٢٨٠) «وعن عبد الأعلى قال سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: انه ليس احتمال أمرنا التصديق له والقبول فقط، من احتمال أمرنا ستره وصيانته عن غير أهله، فاقراءهم السلام وقل لهم: رحم الله عبداً اجترّ مودة الناس اليها حذّوهم بما يعرفون واستروا عنهم ما ينكرون...»^(٢٨١). ويشدّد الإمام الصادق (عليه السلام) في الانكار على مذيبي الاسرار والذين يعرضون إمامهم وجماعتهم للمهالك.

«وعن القاسم شريك الفضل وكان رجل صدق قال: سمعت ابا عبد الله الصادق (عليه السلام) يقول: خلق في المسجد يشهروننا ويشهرون أنفسهم اولئك ليسوا مناّ أولاً نحن منهم، انطق فاداري واستر فيهتكون ستري، هتك الله ستورهم يقولون: امام، والله ما أنا بامام إلا من أطاعني، فاما من عصاني فلست لهم بامام لم يتعلّقون باسمي؟ الا يكفون اسمي من أفواههم، فوالله لا يجمعني الله واياهم في دار»^(٢٨٢).

(٢٧٩) الوسائل: ج: ١١، ص: ٤٨٤، ح: ١.

(٢٨٠) الوسائل: ج: ١١، ص: ٤٨٤، ح: ٥.

(٢٨١) الوسائل: ج: ١١، ص: ٤٨٤، ح: ٥.

(٢٨٢) الوسائل: ج: ١١، ص: ٤٨٥، ح: ١.

وقد تقدمت رواية عبد الله بن أبي يعفور والمعلّى بن خنيس والتي عبرت عن هذه الحقيقة بشكل واضح، وكذلك الروايات التي تقول إنّ التقية جنة المؤمن وحرز المؤمن.

وفي هذا السراط جاءت الروايات التي تأمر بالكف عن الجدل في الدين، فإنّ الأئمة (عليهم السلام) مع إيمانهم بانهم على الحق والهدى، ومعرفتهم بقوة حجّتهم والتزامهم بمنهج الحرية في الفكر - كما سوف نعرف - حتّوا بعض أتباعهم عن الامتناع عن الدخول في الجدل والمناقشات، (فعن علي بن يقطين قال: قال أبو الحسن الكاظم (عليه السلام): مر أصحابك أن يكفوا السنتهم ويدعوا الخصومة في الدين ويجتهدوا في عبادة الله عزوجل»^(٢٨٣)).

«وفي حديث آخر صحيح قال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) «احذروا عواقب العثرات»^(٢٨٤).

«وروى الصدوق في معاني الأخبار بسند صحيح عن هشام بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله الصادق (عليه السلام) يقول: ما عبد الله بشيء أحب إليه من الخباء، قلت: وما الخباء/ قال: التقية»^(٢٨٥).

«وعن سفيان بن سعيد قال: سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) يقول: عليك بالتقية فإنها سنة إبراهيم الخليل (عليه السلام)... إلى أن قال: يا سفيان من استعمل التقية في دين الله فقد تسنّم الذروة العليا من القرآن وإنّ عزّ المؤمن في حفظ لسانه ومن لم يملك لسانه ندم... الحديث»^(٢٨٦).

وتتضح أهمية التقية بمعنى الكتمان في نظر أهل البيت (عليهم السلام) من خلال النتائج والآثار التي كانوا يتوقعونها بسبب موقف الحكومات الظالمة، أو عمليات التشهير والتحريف والاثارة في أوساط جمهور الأمة ضد الجماعة الصالحة وأهل البيت (عليهم السلام) أنفسهم، بعد أن أصبحت العقول العامة مغلفة بالاطر التي وضعتها السلطة أوفقهاؤها، أو تحول القضايا الجزئية التفصيلية في المتبنيات العقائدية والفقهية محاور للصراع والتخندق والتعصب، فهناك العشرات من الأحاديث التي وردت في هذا الموضوع توميء إلى هذا التفسير، وهذه الحقيقة.

(٢٨٣) الوسائل: ج ١١، ص ٤٥٨، ح: ٢٧.

(٢٨٤) الوسائل: ج ١١، ص ٤٦٠، ح: ٥.

(٢٨٥) الوسائل: ج ١١، ص ٤٦٢، ح: ١٤.

(٢٨٦) الوسائل: ج ١١، ص ٤٦٣، ح: ١٦.

«وفي الكافي بسند صحيح عن عثمان بن عيسى عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: ان كان في يدك هذه شيء فان استطعت ان لاتعلم هذه فافعل، قال: وكان عنده انسان فتذاكروا (الاذاعة) فقال: احفظ لسانك تعز، ولا تمكّن الناس من قياد رقبتك فتذل» (٢٨٧).

«وفي سند صحيح عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: يحشر العبد يوم القيامة وما ندا دماً، فيدفع اليه شبه المحجمة أوفوق ذلك، فيقال هذا سهمك من دم فلان، فيقول يا ربّ انك تعلم انك قبضتني وما سفكت دماً، فيقول: بلى ولكلّك سمعت من فلان رواية كذا وكذا فرويتها عليه فنقلت حتى صارت الى فلان الجبار فقتله عليها وهذا سهمك من دمه» (٢٨٨).

وعن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: من أذاع علينا شيئاً من أمرنا فهو كمن قتلنا عمداً ولم يقتلنا خطأ» (٢٨٩).

وهذا الموقف الذي يعبر عنه بالتقية منهج عام تلتزم به كل الجماعات والتنظيمات التي تتعرض الى القمع، بل تلتزم به كل الدول والحكومات وكل العقلاء والحكماء الذين يشعرون بالخطر عند افشاء أسرارهم.

الثالث: المجاملة والتلطّف وحسن المعاشرة مع الناس

وقد انطلق أهل البيت (عليهم السلام) في هذا المورد من مبدأ التعايش الاجتماعي بشكل واضح من ناحية، ومن مبدأ أخلاقي عام اهتم به أهل البيت (عليهم السلام) في موروثهم عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في العمل الاجتماعي والذي تكون له آثار ايجابية حسنة تنعكس - بطبيعة الحال - على قضية التعايش الاجتماعي أيضاً.

أما مبدأ التعايش الاجتماعي فقد تحدثنا عنه في المعلم الثالث، وأمّا المبدأ الأخلاقي فهو مبدأ حسن المعاملة والتودد مع الناس، وابداء المرونة والملاينة معهم، والمداواة لهم، والبشاشة في وجوههم، والذي يعبر عنه الشارع المقدّس بحسن الخلق والمعاشرة.

وقد وردت روايات عديدة عن أهل البيت (عليهم السلام) وعلى رأسهم الرسول (صلى الله عليه وآله) تؤكد على هذا المبدأ الأخلاقي الرفيع، حيث ذكرنا بعضها في المعلم السابق.

(٢٨٧) الوسائل ج ١١، ص ٤٩٣، ح: ٥.

(٢٨٨) الوسائل ج ١١، ص ٤٩٥، ح: ١٤.

(٢٨٩) الوسائل ج ١١، ص ٤٩٦، ح: ١٦.

«فقد روى البرقي عن الصادق (عليه السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ثلاث من لم يكن فيه لم يتم له عمل: ورع يحجزه عن معاصي الله، وخلق يداري به الناس، وحلم يردّ به جهل الجاهل»^(٢٩٠).

«وفي حديث آخر عن الصادق (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): التودد إلى الناس نصف العقل»^(٢٩١).

«وعن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: قال الحسن بن علي (عليه السلام): القريب من قرّبه المودة وإن بعد نسبه، والبعيد من بعدته المودة وإن قرب نسبه، لاشيء أقرب إلى شيء من يد إلى جسد، وإن اليد تغل فتقطع فتحسم»^(٢٩٢).

«وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: مجاملة الناس ثلث العقل»^(٢٩٣).

«وفي حديث صحيح عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار غداً، قالوا: بلى يا رسول الله قال (صلى الله عليه وآله): الهين القريب اللين السهل»^(٢٩٤).

«وفي الحديث عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) رجل فقال: يا رسول الله أوصني، فكان فيما أوصاه أن قال: الق أخاك بوجه منبسط»^(٢٩٥).

«وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا بني عبد المطلب انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فالقوهم بطلاقة الوجه وحسن البشر»^(٢٩٦)، وقد عقد صاحب الوسائل باباً مستقلاً لاستحباب مداراة الناس ضمّنه عدداً من الأحاديث منها:

«روى الكليني بسند صحيح عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أمرني ربّي بمدارة الناس كما أمرني بأداء الفرائض»^(٢٩٧).

«وروي أيضاً بسند عن حبيب السجستاني عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: في التوراة مكتوب فيما ناجى الله به موسى بن عمران: يا موسى اكتم مكتوم سرّي عن سريرتك وأظهر في علانيتك

(٢٩٠) الوسائل: ج ٨، ص ٤٠٤، ح: ٩.

(٢٩١) الوسائل: ج ٨، ص ٤٣٣، ح: ٥.

(٢٩٢) الوسائل: ج ٨، ص ٤٣٣، ح: ٤.

(٢٩٣) الوسائل: ج ٨، ص ٤٣٤، ح: ١.

(٢٩٤) الوسائل: ج ٨، ص ٥١١، ح: ١.

(٢٩٥) أصول الكافي ج ٢، باب حسن البشر، ح: ٣، ص: ١٠٣.

(٢٩٦) أصول الكافي ج ٢، باب حسن البشر، ح: ٣، ص: ١٠٣.

(٢٩٧) أصول الكافي ج ٢، باب المداراة، ح: ٤، ص: ١١٧.

المدارة عني لعدوي وعدوك من خلقي ولا تستسب لي عندهم باظهار مكتوم سرّي فتشرك عدوك وعدوي في سبّي»^(٢٩٨).

وقد مرّت علينا وصية الإمام علي (عليه السلام) لابنه محمد بن الحنفية بهذا الشأن. «روى البرقي في المحاسن بسند صحيح عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) في قول الله عزوجل: (اولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) قال: بما صبروا على التقية (ويدرون بالحسنة السيئة) قال: الحسنة «التقية» والسيئة «الإذاعة»، وقوله: (ادفع بالتي هي أحسن) قال: «التي أحسن (التقية)»^(٢٩٩). وهذا الحديث يجمع بين موارد التقية الثلاثة في تفسيره لهذه الآيات الثلاثة، ويكون المورد الثالث هو الآية الأخيرة بقرينه قوله تعالى: (فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)^(٣٠٠).

«وفي حديث الصدوق في معاني الأخبار بسنده عن سفيان بن سعيد قال: سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) يقول: عليك بالتقية فانها سنة إبراهيم الخليل (عليه السلام) ... الى أن قال: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان اذا أراد سفرأ دارى بغيره، وقال (عليه السلام): أمرني ربّي بمدارة الناس كما أمرني باقامة الفرائض، ولقد أدبه ربه عزوجل بالتقية فقال: (ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم)^(٣٠١).

يا سفيان من استعمل التقية في دين الله فقد تسّم الذروة العليا من القرآن، وان عزّ المؤمن في حفظ لسانه ومن لم يملك لسانه ندم»^(٣٠٢)، وفي حديث آخر رواه الصدوق في معاني الأخبار يذكر فيه أقسام درجات الناس، ويضرب له مثلا في التعامل معهم ثم يقول في آخره: (أما علمت أنّ اماره بني أمية كانت بالسيف والعسف والجور، وأن إمارتنا (إمامتنا) بالرفق والتآلف والوقار والتقية وحسن الخلطة والورع والاجتهاد، فرغّبوا الناس في دينكم وما أنتم فيه»^(٣٠٣).

(٢٩٨) اصول الكافي: ج ٢، باب المدارة، ح: ٣، ص ١١٧.

(٢٩٩) الوسائل: كتاب الأمر والنهي، باب: ٢٤، ح: ٢.

(٣٠٠) فصلت: ٣٤.

(٣٠١) فصلت: ٣٤ - ٣٥.

(٣٠٢) وسائل الشيعة ج ١٦، كتاب الامر والنهي، باب وجوب التقية ح ١٧.

(٣٠٣) الوسائل: ابواب الأمر والنهي: الباب ١٥، ح: ٩.

الفصل الثاني

هامش الاختلاف والتعدد

أهمية وجود هامش الاختلاف

بعد أن عرفنا المعالم الأساسية في نظرية أهل البيت (عليه السلام) تجاه الوحدة في المجتمع الإسلامي.

لابدّ أن نعرف أنّ من جملة الأسس والمعالم لهذه النظرية هو الايمان بوجود هامش للاختلاف والتعدد بين المسلمين، يمكن ان يستوعب الاختلاف في الفهم والاجتهاد والمواقف مع قطع النظر عن مدى صحة هذه الاجتهادات والمواقف، ومدى انسجامها مع الحق والصواب، ذلك ان المجتمع الإسلامي الواسع اذا اريد له النمو والتطور والقدرة على الاستيعاب والشمول والتعايش بين جماعاته وأقوامه، فلا بد من وجود هذا (الهامش) الذي قد يتسع أويضيق بحسب الظروف والأوضاع التي يعيشها المجتمع الإسلامي، ذلك ان هذا الهامش سوف يكون صيانة ووقاية لهذه الوحدة الإسلامية، ودرعاً يجنبها الازمات والاختلافات، ويحفظها من تحول هذه الاختلافات الطبيعية بسبب الضغوط الى متفجرات تنسف هذه الوحدة أوتمزقها أوتشوه صورتها.

ولعل أحد الاسباب الرئيسية لما شهده العالم الإسلامي في تاريخه الطويل من اختلافات وصراعات حادة سفكت فيها الدماء وشرذ فيها الآلاف من أبناء هذه الجماعة أوتلك، هو عدم وجود مثل هذا الهامش المعترف فيه (واقعيّاً) في النظرية وان كانت بعض منطلقاته أحياناً بعيدة عن الحق أوالصواب.

ففي التجربة الاولى لصدر الإسلام في زمن النبي (صلى الله عليه وآله)، نجد أنّ تحرّك المنافقين وبعض ضعفاء النفوس، وكذلك بعض أهل الكتاب بالرغم من أنّه كان مداناً من قبل القرآن الكريم والإسلام إلاّ أنّه كان مسموحاً به، والقرآن الكريم مليء بالملاحظات ومعالجة الشبهات التي كان يثيرها هؤلاء، والاجوبة عن الاسئلة والاستفهامات وكذلك اعطاء المواقف تجاه تحركهم، ولم تدخل الدولة الإسلامية معهم في صراع مسلح أو مطاردة قمع

واستئصال، أقرار منع للأفكار والطروحات والمناقشات، الى أن تطور وضع المنافقين الى حدّ الدخول في التآمر والاصطفاف مع الأعداء الخارجيين الذين كانوا يقاتلون المسلمين، عندئذ جاء التهديد لهم بالنفي أو القتل، كما هو الحال في سورة الأحزاب بعد الأحداث التي شهدتها المسلمون فيها:

(لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغريكّ بهم ثمّ لا يجاورونك فيها إلا قليلاً * معلونين اينما ثقّفوا اخذوا وقتلوا تفتيلاً) (٣٠٤).

هذا فضلاً عن الآراء ووجهات النظر المختلفة التي كانت تصدر عن بقية المسلمين الصالحين، والتي كان يعالجها القرآن الكريم بطريقة أو بأخرى، سواء كانت على المستوى السياسي أو الاجتماعي أو الفكري أو العقائدي، حيث كان القرآن الكريم والنبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) هو الملجأ لحلّ هذه الاختلافات والاجتهادات:

(واعلموا أنّ فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكنّ حبّ اليكّ الايمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه اليكّ الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون) (٣٠٥).

حيث جاءت هذه الآية في سياق قوله تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) (٣٠٦).

نظرية أهل البيت (عليهم السلام) تتميز بوجود هذا الهامش

ومن هذا المنطلق نجد أنّ أحد الامتيازات المهمة التي تمتاز بها نظرية أهل البيت (عليهم السلام) بين المذاهب الاسلاميّة هو وجود التصور عن هذا الهامش، بخلاف النظريات الاخرى في التاريخ التي اتسمت بالالتزام بالعنف والجور لفرض الرأي الواحد على الأمة بحيث تتحول الوحدة الى وحدة مفروضة من الخارج على الأمة بالقوة والعنف، ولعلّ الحديث الذي ذكرناه في آخر بحث (التقية) الذي رواه الصدوق في معاني الأخبار يعبر عن هذا الاتجاه النظري:

«أما علمت أنّ اماره بني أمية كانت بالسيف والعسف والجور، وان امارتنا بالرفق والتآلف والوقار والتقية وحسن الخلطة والورع والاجتهاد، فرغبوا الناس في دينكم وما أنتم فيه» (٣٠٧).

(٣٠٤) الأحزاب: ٦٠-٦١.

(٣٠٥) الحجرات: ٧.

(٣٠٦) الحجرات: ٦.

(٣٠٧) وسائل الشيعة ج: ١١، ص ٤٣٠.

ولكنّ هذا الهامش لا يصح ان يبقى مفتوحاً بدون حدود، وإلاّ لتحول المجتمع الإسلامي الى النزاع والصراع والاتجاه الى النظرية التي تؤمن بالفرقة، والتمييز بين جماعات المسلمين، كما شاهدنا ذلك في بعض أدوار التاريخ الإسلامي وفي عصرنا الحاضر، وهذه الحدود يجب أن تتضح سواء على مستوى المجالات، أو على مستوى الممارسة الفردية والجماعيّة.

وسوف نشير في البداية الى المجالات التي تؤمن نظرية أهل البيت (عليهم السلام) بوجود هذا الهامش من الاختلاف والتعدد من ناحية، والحدود الموضوعية لحركة هذا الهامش، ثمّ بعد ذلك نشير بشكل اجمالي الى النظريتين الأخريتين - والتي تمثل نظرية أهل البيت (عليهم السلام) (النظرية الوسط) بينهما في الوحدة الإسلامية، وفي حركتها في التاريخ الإسلامي.

أولاً: مجالات الهامش التعددي

يمكن أن نشير في تشخيص هذه المجالات الى ثلاثة مجالات رئيسيّة يمكن استنباطها من نظرية أهل البيت (عليهم السلام) سواء على مستوى الطرح النظري، أو مستوى الممارسة لهم (عليهم السلام).

الأول: الحرية الفكرية والعقائدية:

لا شك أنّ الإسلام الذي جاء به النبي محمد (صلى الله عليه وآله) من عند الله عزّ وجلّ يملك صيغة عقائدية وفكرية واحدة ومحددة، تضمنها القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة. ولا شك أنّ أهل البيت (عليهم السلام) يرون في أنفسهم أنهم أعلم الناس بالقرآن الكريم، وبالسنة النبوية المباركة، ليس على مستوى الحفظ وتفسير اللفظ وفهم المعاني العالية لهما، بل على مستوى تفسير المعنى وتشخيص المصاديق الخارجية لهذه المفاهيم في عصر النبوة، أوفي العصور التالية الأخرى، حيث أنّ القرآن الكريم حيّ باق، وكذلك السنة النبويّة، ولهما في كلّ عصر مصاديق ينطبقان عليها، وهو ما يمكن أن نشير اليه بكلمة التأويل، كما يفهم ذلك من استخدام القرآن الكريم لها بعيداً عن الاستعمال الاصطلاحي لها، الذي قد يعني به علماء القرآن أحياناً حرف اللفظ والمعنى الى غير الظاهر منهما.

وقد دعا أهل البيت (عليهم السلام) المسلمين جميعاً الى الأخذ عنهم، وانتقدوا أولئك الذين ذهبوا الى اعتماد الطرق والوسائل الأخرى بعيداً عن هذا المنهل الصافي. (٣٠٨).

ونحن وان لم نكن في هذا البحث بصدد الحديث عن هذا الجانب من نظرية أهل البيت (عليهم السلام)، ولكن هناك الكثير من النصوص والاعتبارات تؤيد هذا التصور، وفي مقدمة هذه النصوص حديث الثقلين المتواتر: «إني تارك فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبداً، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض: كتاب الله وعترتي أهل بيتي».

وكذلك الاعتبار الواضح الذي يقول ان أهل البيت (عليهم السلام) أدرى بالذي فيه باعتبار اجماع المسلمين على خصوصية علي (عليه السلام) في ارتباطه برسول الله (صلى الله عليه وآله) في جانب العلم والمعرفة، والأخذ عنه.

وبالرغم من كل ذلك نجد أنّ المسلمين اختلفوا في فهم القرآن الكريم وآياته وان اتفقوا على ثبوت نصه كما اختلفوا في فهم السنة النبوية الشريفة، وفي اثبات نصوصها، وكان للفاصل الزمني والظروف السياسية والاجتماعية والأوضاع النفسية والأخلاقية والثقافية للأمم التي دخلت الإسلام تأثيرات مختلفة أو متباينة في هذا الفهم والاختلاف، بالإضافة الى الأهواء والمصالح والجهل، والتي كان لها آثار سيئة وحادة في نتائج هذا الاختلاف، وتعدد الاجتهادات والتفسيرات والفهم لهذه النصوص المقدسة.

وازاء هذا الواقع وعلى المستوى العقائدي، عمل أهل البيت (عليهم السلام) على توضيح الحقائق التي يعرفونها بالحكمة والموعظة الحسنة، واسسوا المدارس، وخرّجوا العلماء والمتكلمين، ورسوموا الخطط والمناهج في الوصول الى الهدف المقدس المتمثل بالمحافظة على الإسلام النقي المصقّى (٣٠٩).

ولكن الى جانب ذلك وجدوا أنّ من الضروري من أجل حفظ وحدة المسلمين وعلاقاتهم وروابطهم أن يتمّ التعامل مع هذا الاختلاف بواقعية تفسح المجال للتفكير الحر، واستخدام العقل والمنطق والحركة الذهنية والفكرية من أجل الوصول الى الحقيقة والتكامل في طريق الوصول اليها.

وتوجد في تاريخ مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) محطات ومؤشرات واضحة تدلّ على هذا التطور النظري والممارسة العملية، ففي حياة الإمام علي (عليه السلام) التي تمثل احدى

(٣٠٨) يمكن الحصول على النصوص التي تناولت هذا الموضوع في ابواب صفات القاضي من كتاب القضاء الوسائل: ج: ١٨.

(٣٠٩) تناولنا هذا الموضوع بالبحث في كتابنا (دور الائمة في الدفاع عن الإسلام).

المحطات والمقاطع المهمة في هذه المدرسة، نجد مجموعة من المؤشرات على هذا التصور:

أ - تصدّي الإمام علي (عليه السلام) الى جميع المشكلات والمسائل العلمية والعقائدية التي كان يطرحها أهل الكتاب وغيرهم ممن انفتحت عليهم الدولة الإسلامية في ظروف توسعها، حيث كان الكثير من علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس يحاولون التعرف على الحقائق الإسلامية، كما كانوا في نفس الوقت يجادلون ويدافعون عن عقائدهم بعد الغزو الثقافي والعسكري الإسلامي للعراق والشام واليمن ومصر وأفريقيا وغيرها من البلاد التي وقعت تحت الفتح الإسلامي، خصوصاً في زمن الخليفة الثاني والثالث.

وكانت تجري بسبب ذلك مطارحات ومناقشات فكرية ودينية وعقائدية بينهم وبين الإمام علي (عليه السلام) كانت معروفة في تلك الفترة ودونتها كتب التاريخ خصوصاً في أخبار أهل البيت (عليهم السلام) وكانت من الميزات التي تميّز بها الإمام علي (عليه السلام) حتى قال عنها الخليفة الثاني (عمر) «لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن علي».

ب - دلالة الإمام علي (عليه السلام) للامة والمسلمين بشكل عام أن يسألوه عن شؤونهم الحياتية والعقائدية والعلمية، والقضايا المرتبطة بالكون والارض والسماء، الأمر الذي يفتح مجالاً واسعاً للنظر والتفكير والتأمل والمطارحة الفكرية والعقائدية.

وقد ورد في نهج البلاغة الاشارة الى ذلك في قوله (عليه السلام): «فاسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدي فئة وتضل فئة إلا أنبأتكم بناعقها وقاندها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها ومن يقتل من أهلها قتلاً ومن يموت منها موتاً...»^(٣١٠).

«انّ أمرنا صعب مستصعب لا يحمله إلا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للايمان ولا يعي حديثنا إلا صدور أمينة وأحلام رزينة، أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض»^(٣١١).

ج - التراث الفكري والعقائدي الذي تركه الإمام علي (عليه السلام) من خلال خطبه ورسائله وأحاديثه وقضائه وكلماته القصار، فإنّ هذا التراث مليء بمعالم هذه الحرية الفكرية والعقائدية، حيث يتناول (عليه السلام) مختلف القضايا المرتبطة بالعقائد والمجتمع والتاريخ بالطرح والبحث والمناقشة والاستدلال، الامر الذي يفتح آفاقاً واسعة في التفكير والفهم،

(٣١٠) نهج البلاغة: الخطبة: ٩٣.

(٣١١) نهج البلاغة: الخطبة: ١٨٩.

ويمكن أن يعتبر ما يضمّه نهج البلاغة الذي جمع فيه الشريف الرضي المختار من خطبه ورسائله وكلماته القصار نموذجاً رائعاً لهذا التراث الفكري العقائدي والتاريخي، بالإضافة الى الجانب الأدبي والأخلاقي.

حيث تناول الإمام علي(عليه السلام) قضايا التوحيد وصفات الله وعالم الغيب والنبوة والامامة والسياسة والمجتمع والتاريخ والحياة وعالم الآخرة وغيرها من القضايا الكونية والإنسانية بالبحث والتحليل والمناقشة والاستدلال، مما لم يكن معروفاً في ذلك العصر، بل كان الاتجاه الذي يرويه التاريخ عن الخليفة الثاني هو محاولة غلق أبواب التفكير والبحث في مثل هذه القضايا تحت شعار (في كتاب الله وسنة نبيه ما يكفيننا)، وتم إحراق مكتبة الاسكندرية التي استولى عليها المسلمون في فتحهم لمصر تحت هذا الشعار، كما تم منع تدوين السنة النبوية تحت شعار عدم منافسة القرآن والمحافظة على نصه، وتمّ المنع عن السؤال عن الحقيقة الإلهية وصفات الله تحت شعار الحرص على التوحيد والنصوص المقدسة.

ونجد مثل هذا الانفتاح في معالجة القضايا الفكرية والعقائدية والتاريخ والمجتمع في مدرسة الإمام الصادق والإمام الكاظم وفي عهديهما، حيث انتشرت الفلسفة اليونانية والهندية والاعريقية في البلاد الإسلامية، بسبب انفتاح العالم الإسلامي من جهة ووجود الفرصة السياسية في الفترة التاريخية التي شهدت انشغال الدولة الأموية في أواخر أيامها، والدولة العباسية في أوائل أيامها، بالمحافظة على وجودهما وترتيب أوضاعهما الداخلية، فظهرت مذاهب الزندقة والاحاد، والمدارس الفلسفية والكلامية المختلفة.

وقد قام أئمة أهل البيت(عليهم السلام) بمعالجة هذا الموضوع عن طريق حرية الفكر والعقيدة، وفتح باب الحوار والمناقشات، وتربية العلماء والمتكلمين القادرين على مقارعة الفكر بالحجة والدليل والبرهان.

وفي مقابل هذا الاتجاه كان الاتجاه الآخر الذي استخدم اسلوب القمع وملاحقة الزندقة والاحاد بالمطاردة والاتهامات وأحكام القتل والسجن، حيث استغل هذا الاسلوب لمطاردة كل الأحرار المطالبين بالعدل والاصلاح والرافضين للظلم والاستعباد، كما نجد في أيام المأمون والمعتصم العباسي كيف تمكن أئمة أهل البيت(عليهم السلام) (الرضا والجواد) من مواجهة مختلف علماء هذا العصر من أحبار أهل الكتاب أو المتكلمين والفقهاء المسلمين في المجالس العلمية التي كان يعقدها المأمون والمعتصم، ويدور فيها الحوار والنقاش بشكل

واسع ومفتوح، وكان يشارك فيها أئمة أهل البيت (عليهم السلام) بشكل فعّال^(٣١٢). كل ذلك يدل على حقيقة ضرورة وجود هذا الهامش من التعددية في المجتمع الإسلامي ليكون قادراً على استيعاب هذه التطورات ومواكبتها وبقاء المجتمع الإسلامي في موقع الريادة والقيومة على المجتمعات الأخرى، وإلا فسوف يصاب هذا المجتمع والأمة الإسلامية بالانطواء ثم المحاصرة ثم السقوط، أما الغزو الثقافي والفكري للمجتمعات الأخرى، كما حدث ذلك في العصور المتأخرة للأمة الإسلامية.

الثاني: الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية الفقهية

تعتبر قضية فتح باب الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية من أهم القضايا التي واجهت المسلمين في الصدر الأول الإسلامي وحتى يومنا الحاضر ذلك أنّ المسلمين وان كانوا قد أمروا بالأخذ من الكتاب الكريم والسنة النبوية، ولكن اختلفوا - كما أشرنا - في فهم القرآن الكريم والسنة، وكذلك في ثبوت السنة نفسها، ومن جهة نظر أتباع أهل البيت (عليهم السلام) فإنّ مرجعهم في فهم القرآن والسنة وكذلك في ثبوتها إنما هم العترة الطاهرة التي تعتبر الثقل الآخر، كما جاء في الحديث، ولكن مع ذلك نجد أنّ أصحاب الأئمة (عليهم السلام) كانوا يواجهون هذه المشكلة في بعض أبعادها، باعتبار الفاصل المكاني وعدم تيسر الوصول إلى الأئمة أنفسهم، بالإضافة إلى اختلاف النقل عنهم، وبعد غيبة الإمام المهدي (عليه السلام) واجهوا قضية فهم النص وثبوته.

كل ذلك جعل قضية الاجتهاد من أجل الوصول إلى الحكم الشرعي من القضايا المهمة والأساسية، وقد تكونت في العالم الإسلامي مدارس عديدة في الاجتهاد، ومذاهب فقهية متعددة أيضاً، بعضها كان يعتمد على النص ولا يتجاوزه حرفياً، وبعضها يعتمد عليه ويحاول تأويله أو التوسع فيه وفهم علله وخلفياته، وبعضها كان يعتمد على الظنون الأخرى كالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة وغيرها من قواعد الاستنباط بالرأي.

وقد توسعت دائرة الاجتهاد إلى درجة خطيرة، خصوصاً المدرسة التي تعتمد على الرأي، فظهرت آراء شاذة وبعيدة عن الإسلام والشريعة، حتى انتهى الأمر بالدولة الإسلامية في عصور متأخرة نسبياً باتخاذ قرار سد باب الاجتهاد، وحصر المذاهب الإسلامية التي تتبناها

(٣١٢) كل هذه الأحداث والقضايا مدوّنة في كتب الحديث والتاريخ والمراجع المختصة، يمكن مراجعتها من خلال مراجعة تاريخ هؤلاء الأئمة الاعلام (عليهم السلام).

الدولة في المذاهب الإسلامية الأربعة المعروفة، مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك بن أنس ومذهب أحمد بن حنبل ومذهب محمد بن إدريس الشافعي، وإلى جانب ذلك توجد مذاهب أخرى للمسلمين ممن يعتقدون بالإمامة كمذهب الزيدية والاثني عشرية والإسماعيلية، وممن لم يؤمن بالمذاهب الأربعة ممن لا يؤمن بمشروعية هذا القرار كمذهب الإباضية والظاهرية. وقد كان لأئمة أهل البيت (عليهم السلام) موقف واضح تجاه هذا الموضوع الهام الذي يحفظ للمسلمين وحدتهم من ناحية، ويفتح هذا الهامش في التعدد من ناحية أخرى، وبالتالي فهو يتجنب هذه الأخطار العظيمة التي تربت على فتح باب الاجتهاد بمصراعيه بدون حدود، أو على غلق هذا الباب، والسير بالفقه الإسلامي في طريق مسدود أو متخلف لا يكون قادراً فيه على مواكبة التطورات الإنسانية، ومعالجة المشكلات التي أوجدتها المدنية الجديدة المتطورة، والحركة العلمية النامية، وقد كان هذا المنهج والموقف يعتمد على أساس فتح باب الاجتهاد، ولكن ضمن الضوابط الشرعية التي يمكن استنباطها من القرآن الكريم، والتي لخصها أهل البيت (عليهم السلام) في النقاط التالية:

١ - الاعتماد في الاجتهاد واستنباط الحكم الشرعي على (العلم) المتمثل بالنص القرآني الشريف، والسنة النبوية الصحيحة الثابتة، وترك الاعتماد على الظنون أو الآراء أو الأذهان، حيث وردت مئات الروايات الشريفة عنهم (عليهم السلام) تؤكد على هذه المضامين، وبشكل متميز لا نجد له نظيراً بهذه السعة والشمول في المذاهب الإسلامية الأخرى. كما حثوا في نفس الوقت على حفظ القرآن وتدوين السنة وتداولها وضبطها ولتخرج في نقلها بشكل واضح ومتميز، كل ذلك في قبال بعض المذاهب التي اعتمدت بشكل واسع على الرأي لعدم ثبوت شيء مهم من السنة لديها، كمذهب أبي حنيفة، ولذلك نجد أن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) خصّوا هذا المنهج الخطير في الاستنباط بقدر كبير من النقد والمواخظة^(٣١٣)، لأنه سوف ينتهي إلى النهايات التي انتهى إليها بعد ذلك، الأمر الذي أدى إلى اتخاذ قرار سد باب الاجتهاد.

٢ - الدعوة لتمييز الحديث الصحيح من الفاسد من خلال العرض على القرآن الكريم، وعلى الثابت من السنة النبوية الشريفة، بحيث يكون النص الثابت وهو القرآن الكريم

(٣١٣) «عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: مَنْ أَفْتَى النَّاسَ بِرَأْيِهِ فَقَدْ دَانَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ، وَمَنْ دَانَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فَقَدْ ضَاذَ اللَّهُ حَيْثُ أَحَلَّ أَحَلَّ وَحَرَّمَ فِيمَا لَا يَعْلَمُ» (أصول الكافي ج ٢، باب البدع والرأي ح ١٧، ص ٥٧) «وعن أبان بن تغلب عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: إِنَّ السَّنَةَ لَا تُقَاسُ، أَلَا تَرَى أَنَّ امْرَأَةً تَقْضِي صَوْمَهَا وَلَا تَقْضِي صَلَاتَهَا، يَا أَبَانَ: إِنَّ السَّنَةَ إِذَا قِيسَتْ مُحَقِّقُ الدِّينِ».

(المصدر السابق ح ١٥).

والثابت من السنة النبوية هو الأساس الذي يرجع إليه الاستنباط في نهاية المطاف، فعن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «إِنَّ عَلَى كُلِّ حَقِّ حَقِيقَةً وَعَلَى كُلِّ صَوَابٍ نُورًا، فَمَا وَافَقَ كِتَابَ اللَّهِ فَخَذُوهُ وَمَا خَالَفَ كِتَابَ اللَّهِ فَدَعُوهُ»^(٣١٤). وعن أيوب بن الحر قال: سمعت أبا عبدالله (عليه السلام) يقول: «كُلُّ شَيْءٍ مُرَدُّ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَكُلُّ حَدِيثٍ لَا يُوَافِقُ كِتَابَ اللَّهِ فَهُوَ زَخْرَفٌ»^(٣١٥). وعن أبي عبدالله (عليه السلام) أيضاً: «مَا لَمْ يُوَافِقْ مِنَ الْحَدِيثِ الْقُرْآنَ فَهُوَ زَخْرَفٌ»^(٣١٦).

٣ - دعوة المسلمين للاهتمام بوثيقة الراوي وحذقه في نقل الحديث أو الأخذ به، وضرورة الفحص والنقد للأحاديث من خلال نقلها ورجالها حيث كثر الكذب على رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأسباب سياسية وشخصية وذاتية ومذهبية^(٣١٧) وفي نفس الوقت فتحوا أمام المسلمين باب الأخذ من مصادرهم النقية والثرية، والتي تعتبر في أعلى درجات الوثاقة والصحة والاعتماد، لأنَّ حديث أحدهم هو حديث أبيه، وحديث أبيه حديث جدّه، حتى ينتهي الأمر إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)^(٣١٨) وفي إطار هذه الضوابط الرئيسية الثلاث فتحوا باب الاجتهاد والنظر، وعلموا المسلمين وأصحابهم كيفية الاستنباط الصحيح للحكم الشرعي، لا في لافهم من القرآن الكريم، أو التنبيه على وجود المحكم والمتشابه والمطلق والمقيّد العام والخاص في القرآن فحسب، بل في الحديث نفسه أيضاً، وهذا ما يسميه الأصوليون بابحات الجمع العرفي، كما أنهم شرحوا وأوضحوا وجود القواعد العامة التيوضعها الشارع المقدس للرجوع إليها عند الشك في الحكم أوفي الموضوع، وعدم وجود ما يعيّن هذا الحكم

(٣١٤) أصول الكافي ج ١ باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب ص ٦٩، ح ١.

(٣١٥) المصدر السابق، ح ٣.

(٣١٦) المصدر السابق، ح ٤.

(٣١٧) قال الإمام الصادق (عليه السلام) في جواب سؤال عمر بن حنظلة عن اختلاف القضاة في الحكم: «الحكم ما حكم به أعدلهما وأفقههما وأصدقهما في الحديث وأورعهما، ولا يلتفت إلى ما يحكم به الآخر». (الوسائل ج ١٨، باب ٩ من أبواب صفات القاضي، ج ١، ص: ٧٥).

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في معرض بيان كثرة الكذب عليه (صلى الله عليه وآله): «أيها الناس قد كثرت عليّ الكذابة فمن كذب عليّ متعمداً فليتبؤ مقعده من النار». (أصول الكافي، ج ١، ص: ٦٢، ح ١).

وقال الإمام الصادق (عليه السلام): «إِنَّ الْمَغِيرَةَ بْنَ سَعِيدٍ دَسَّ فِي كُتُبِ أَصْحَابِ أَبِي أَحَادِيثَ لَمْ يَحْدِثْ بِهَا أَبِي فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَقْبَلُوا عَلَيْنَا مَا خَالَفَ قَوْلَ رَبِّنَا وَسُنَّةَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)». (رجال الكشي ص ١٩٥).

(٣١٨) عن أبي عبدالله الصادق (عليه السلام) قال: «حَدَّثَنِي حَدِيثَ أَبِي، وَحَدَّثَنِي أَبِي حَدِيثَ جَدِّي، وَحَدِيثَ جَدِّي حَدِيثَ الْحُسَيْنِ، وَحَدِيثَ الْحُسَيْنِ، حَدِيثَ الْحَسَنِ، وَحَدِيثَ الْحَسَنِ حَدِيثَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَدِيثَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، وَحَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». (بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٧٨).

والموضوع ، كقاعدة الاستصحاب والبراءة الحل والطهارة والفراغ والتجاوز والاحتياط وغيرها من القواعد الفقهية أو الأصولية.

ولاشك أن فتح باب الاجتهاد يعني بطبيعة الحال (التعددية) إذ قد يختلف المجتهدون في الوصول الى النتائج من خلال التعامل مع هذه الضوابط، كما أن فتح باب الاجتهاد يهيء الأرضية للتطور الفقهي، بمعنى القدرة على مواجهة الحوادث المستجدة ، والمشكلات الصعبة، والتحديات الجديدة، ويجسد حقيقة أن حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة، وان الرسالة الإسلامية هي الرسالة الخاتمة، وان في كل حادثة حكماً شرعياً وان الشريعة شاملة وعامة كما نصّ على ذلك القرآن الكريم^(٣١٩): (ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجننا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)^(٣٢٠)، (وكل شيء فصلناه تفصيلاً)^(٣٢١) و(ما فرطنا في الكتاب من شيء)^(٣٢٢).

وفي نفس الوقت يمكن أن نعرف أن وضع الضوابط والأسس لعملية الاجتهاد يجنبها أخطار الانزلاق في مهاوي الرأي والظنون والميول والنزعات، بحيث تتحول الشريعة الى حالة من الفوضى التشريعية والتناقض في الآراء والاتجاهات، والسقوط في الانحراف والضياغ والضلال. ويمكن ان نجد معالم هذا التوجه في فتح باب الاجتهاد واضحاً في نقطتين أخريتين بالاضافة الى النقاط السابقة:

١ - إرجاع أئمة أهل البيت (عليهم السلام) لأتباعهم في القضايا والمسائل الشرعية العملية، وكذلك في فصل الخصومات والنزاعات الى كبار أصحابهم ومعتمديهم، وفي نفس الوقت تعليم هؤلاء العلماء من أصحابهم كيفية الاستنباط، وحثهم على التصدي للفتيا وفصل الخصومات والنزاعات.

ومن الواضح أنّ هذه العملية تحتاج الى اجتهاد واستنباط حتى يمكن أن تتجزأ بشكل كامل، خصوصاً في القضاء، ولا يمكن الاكتفاء بمجرد ما كان يسمعه هؤلاء الأصحاب من روايات في مختلف الوقائع^(٣٢٣).

(٣١٩) أشرنا الى الأهداف من حركة الاجتهاد في كتابنا (دور الأئمة في بناء الكتلة الصالحة).

(٣٢٠) النحل: ٨٩.

(٣٢١) الأنعام: ٣٧ .

(٣٢٢) الاسراء: ١٢.

(٣٢٣) قال محمد بن عيسى قلت لأبي الحسن الرضا (عليه السلام) : جعلت فداك لا أكاد أصل اليك لأسئلك عن كلّ ما أحتاج إليه من معالم ديني، أفيونس بن عبد الرحمن ثقة أخذ عنه ما أحتاج إليه من معالم ديني؟ فقال (عليه السلام) : نعم». (بحار الأنوار : ج ٢ ص ٢٥١ باب: ٢٩، ح ٦٧) «وعن علي بن المسيّب قال: قلت للرضا (عليه السلام) شفتي بعيدة ولست أصل إليك في كلّ وقت، فممن أخذ معالم ديني؟ قال (عليه السلام): من زكريا بن آدم القمي المأمون على الدين والدنيا». (بحار الأنوار ج ٢ ص ٢٥١ باب:

ويوجد في بعض النصوص ما يشير الى إعمال أصحاب الأئمة (عليهم السلام) لأرائهم واجتهاداتهم في أخبار الأئمة أنفسهم من خلال المقارنة بينها بعضها مع البعض الآخر، كما يوجد في بعض النصوص ما يشير الى الاختلاف فيما يذكره أصحاب الأئمة (عليهم السلام) عنهم، حيث يمكن أن يكون أحد وجوه هذا الاختلاف هو الاختلاف في الاستنباط، كما أن أحد وجوهه المعروفة هو الاختلاف الناشئ بسبب التقية.

٢ - دعوة أئمة أهل البيت (عليهم السلام) لأصحابهم، وأقرارهم على التصدي لبيان الفتاوى والأحكام الشرعية على طبق المذاهب الإسلامية المختلفة، الأمر الذي كان يؤول الى أن هذا الاتراف بهذا القدر من الاختلاف يمثل جانباً من جوانب التعايش بين المسلمين والانسجام في حياتهم وتيسيرها لهم^(٣٢٤).

الثالث: القبول بالتعددية السياسية

يحضى موضوع التعددية السياسية في المجتمع الإنساني بأهمية خاصة خصوصاً في هذا العصر، ويكاد أن يكون من المبادئ الإنسانية التي تقرها جميع المجتمعات الإنسانية في عصرنا الحاضر، وتضمنتها وثيقة حقوق الإنسان التي أقرتها هيئات الأمم المتحدة، كما أنه من الموضوعات ذات الحساسية العالية في المجتمعات الإنسانية عبر التاريخ، وتختلف بينها في التعامل معه بشكل واضح وحاد أحياناً.

وفي التاريخ الإسلامي كانت هذه القضية من أهم القضايا التي عرفها هذا التاريخ منذ بداياته، وكانت من القضايا ذات التأثير الحاد والقوي على مجرى الأحداث، ويكاد أن يتسم التاريخ الإسلامي مع الأسف بحرمان المسلمين من هذه التعددية في مختلف عصوره إذا استثنينا بعض الفترات القصيرة جداً في هذا التاريخ، حتى تولد تصور في فهم النظرية الإسلامية في الحكم والمجتمع يفترض أن الحكم في الإسلام يمنع التعددية بالرغم من أن الرأي العام بين المسلمين هو قيام الحكم على أساس الشورى انطلاقاً من موقف الصحابة العام في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله).

٢٩ ح ٦٨. «وعن شعيب العرقوفي قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): ربّما احتجنا أن نسأل عن الشيء فمن نسأل؟ قال (عليه السلام): عليك بالأسدي - يعني أبابصير -». (نفس المصدر الحديث ٦١ ص ٢٤٩).

(٣٢٤) عن معاذ بن مسلم قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): إني أجلس في المجلس فيأتيني الرجل، فإذا عرفته أنه يخالفكم أخبرته بقول غيركم، وإن كان ممن يقول بقولكم أخبره بقولكم، فإن كان ممن لا أدري أخبرته بقولكم وقول غيركم فيختار لنفسه، فقال (عليه السلام): «رحمك الله هكذا فاصنع». (بحار الأنوار ج ٢، كتاب العلم، باب: ٢٩، ح ٢٦، ص: ٢٣٧).

ولاشك أننا عندما نتحدث عن التعددية لا نريد منها التعددية في مقابل القبول بأصل النظام الإسلامي، أو ما يشكل النقيض له، فإنّ مثل هذه التعددية لا يعترف بها أي مجتمع إنساني في العصر الحاضر، وحتى الأنظمة المتوغلة في (الديمقراطية) تأبى لنفسها الاعتراف بالأحزاب والتنظيمات التي تعادي الديمقراطية، وتعمل للقضاء عليها، وتحرمها من الاعتراف الرسمي بها، وإنّما يُراد من التعددية التعددية السياسية في ضمن النظام الذي قبلته الأمة والتزمت به وأقرته لنفسها، وعندما نتحدث عنها في ضمن النظام الإسلامي نريد بها التعددية في إطار هذا النظام نفسه.

وعلى أساس هذا الفهم نجد أنّ نظرية أهل البيت (عليهم السلام) في الوحدة الإسلامية في المجتمع الإسلامي، كانت تتميز بالتعددية السياسية، فضلاً عن التعددية الفكرية والثقافية، الأمر الذي يلفت النظر الى أهمية هذا التصور، حيث أن المعروف عن مذهب أهل البيت (عليهم السلام) انه يقول بالإمامة (المنصوصة)، وفي عصر الغيبة بولاية الفقيه الجامع للشرائط.

ويمكن أن نعرف هذا البعد في نظرية أهل البيت (عليهم السلام) بشكل واضح في مواقف الإمام (عليه السلام) في زمن خلافته، وموقفه من خلافة الخلفاء السابقين عليه، حيث كانت الفرصة مؤاتية لأهل البيت (عليهم السلام) أن يعبروا عن نظريتهم في هذه التعددية.

وبعد هذا الزمن نجد أهل البيت (عليهم السلام) يتعرضون للمطاردة والاضطهاد والتشريد، الأمر الذي لم يكن يسمح لهم أن يعبروا عن هذه التعددية إلا بالمطالبة بها، أو السماح لهم بممارسة عملهم الثقافي والسياسي في المجتمع الإسلامي، ويأخذوا على الحاكمين طغيانهم وتفردهم بالحكم، وعدم السماح بسماع الرأي الآخر.

ونجد في حياة الإمام علي (عليه السلام) ثلاثة مواقف يمكن أن ترسم الصورة الواضحة لهذه النظرية التعددية السياسية.

الموقف الأوّل: هو موقف الإمام علي (عليه السلام) وأصحابه في زمن الخلفاء الثلاثة السابقين على زمان خلافته، حيث كان هذا الموقف يتمثل في بعدين رئيسيين:

أ - المساهمة الفعّالة والمشاركة في تحمل أعباء ومسؤوليات الحكم، بالرغم من وجود الخلاف السياسي الذي أعلن الإمام علي (عليه السلام) وأصحابه موقفهم تجاهه يوم السقيفة وما بعدها على ما يحدثنا التاريخ ويحدثنا الإمام (عليه السلام) نفسه في مواضع متعددة من نهج البلاغة، حيث كان يعتقد بعدم صحة الاجراءات التي اتخذت في سقيفة بني ساعدة بعد

وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وامتنع عن البيعة في الأيام الأولى، كما امتنعت عن ذلك زوجته الزهراء (عليها السلام) ومجموعة من الصحابة أمثال سلمان الفارسي والزبير بن العوام والعباس بن عبدالمطلب والمقداد بن الأسود وأبوذر الغفاري وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وغيرهم (٣٢٥).

ومع ذلك نجد الإمام علي (عليه السلام) يحاول أن يتحمل المسؤولية الشرعية والدينية في المساهمة والمشاركة، سواء على المستوى العلمي والثقافي، أو على مستوى الحكم والقضاء، أو مستوى العمل الجهادي والسياسي، حتى أن الخليفة الثاني قال وفي مناسبات عديدة (لا أبقاني الله لمعضله ليس لها أبو الحسن علي).

وكذلك ساهم سلمان الفارسي في حروب تحرير العراق، وتولى بعد ذلك الولاية للخليفة الثاني في العراق عندما كان مركزها المدائن، وكذلك عمار بن ياسر وغيرهما من مناصب أخرى.

ب - الالتزام بممارسة العمل السياسي الاصلاحى في المجتمع الإسلامى، وانتقاد ما يقوم به الحكم الإسلامى من أعمال لا يراها منسجمة مع الشرعية أو المصلحة الإسلامية العليا، ولعل موقف الإمام علي (عليه السلام) تجاه قضية البيعة والخلافة بعد وفاة الخليفة الثاني عمر يدل على هذا الاتجاه، حيث رشحه للخلافة ضمن ستة أشخاص يتشاورون في انتخاب واحد منهم للخلافة، فإنّ عبدالرحمن بن عوف طلب في البداية من الإمام علي (عليه السلام) أن يبايعه للخلافة ولكن شرط عليه الالتزام بسيرة الشيخين، مضافاً الى الالتزام بالكتاب والسنة، حيث رفض الإمام علي (عليه السلام) شرط الالتزام بسيرة الشيخين واصرّ على العمل باجتهاده ضمن اطار الكتاب الكريم والسنة النبوية.

كما انّ الإمام علياً لم يزل يقدّم النصيح، وينتقد المنهج السياسي والعملي الذي كان يسير عليه الخليفة الثالث، وكان رأيه في هذا المجال أنّه يسلم ما سلمت أمور المسلمين بنظره، ولم

(٣٢٥) قال علي (عليه السلام): «فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقي مستأثراً عليّ منذ قبض الله نبيّه (صلى الله عليه وآله) حتى يوم الناس هذا». (نهج البلاغة: الكلام: ٦). وقال (عليه السلام) لما انتهت إليه أنباء السقيفة: «ما قالت الأنصار؟ قالوا: قالت منا أمير ومنكم أمير، قال (عليه السلام): فهلا احتججتم عليهم بأنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) وصّى بأنّ يُحسن الى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم؟ قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؟ قال (عليه السلام): لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم، ثم قال (عليه السلام): فماذا قالت قريش؟ قالوا: احتجت بأنها شجرة الرسول (صلى الله عليه وآله) فقال (عليه السلام): احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة». (نهج البلاغة: الكلام: ٦٧).

يكن هناك جور إلا عليه خاصة^(٣٢٦)، وإلا

فقد كان يرفع صوته بالانتقاد والاصلاح عندما تتعرض أمور المسلمين الى الجور والظلم.

كما أنّ أصحابه كانوا يلتزمون بهذا المنهج، فقد انتقد أبوزر الغفاري بشدة المنهج الاقتصادي للخليفة الثالث في توزيع الأموال، وتشكيل الاقطاعات الكبيرة والاسراف في الانفاق، والبذخ ومظاهر الكبرياء والعظمة ، وعدم العدالة في التوزيع، الأمر الذي أدّى الى تعرضه للنفي والابعاد الى بلاد الشام، ثمّ بعد ذلك الى الربذة من الحجاز، لإصراره على الاستمرار في هذا النهج، وعدم تحمل معاوية لآثار نشاطه السياسي في المنطقة.

كما أنّ عمار بن ياسر انتقد بشدة منهج الخليفة الثالث في تسليط بعض رجال السوء من أقربائه على أمور الحكم، وعدم العدل في الرعيّة ، الأمر الذي أدّى به الى أن يتعرض الى الضرب والوطء بالأقدام، حتى أصيب بالفتق، وكانت له مساهمة كبيرة في تأجيج مشاعر النقمة والرفض لهذا المنهج لدى المسلمين، خصوصاً في الكوفة ومصر.

الموقف الثاني: موقفه من حركة زوجة النبي (عائشة) والصحابيين طلحة والزبير ، حيث كانت أم المؤمنين عائشة ممن أعلن النقمة وعدم القبول بمنهج الخليفة الثالث، وأخذت بتحريض الناس عليه حتى روي عنها أنها قالت في بعض حالات غضبها (اقتلوا نعتلاً فقد كفر) وخرجت من المدينة الى مكة تعبيراً عن عدم ارتياحها ، وأظهرت السرور بمقتل الخليفة الثالث لهذا السبب بقولها (وألقت عصاها واستقرّ بها النوى) ، وكان يشاركها في هذا الأمر جماعة من الصحابة الناقمين، وفي مقدمتهم طلحة والزبير، حتى انهما اشتركا بشكل أوبآخر في عملية الهجوم على مسكن عثمان أو التحريض على ذلك^(٣٢٧).

وقد بادر كل من طلحة والزبير الى مبايعة الإمام علي(عليه السلام) بعد مقتل عثمان في جملة جمهور المسلمين الذين انهالوا على الإمام يبايعونه بصورة لم يعرف لها نظير في التاريخ الإسلامي.

ولكنهما بعد فترة من الزمن بدءا يتغيران سياسياً، حيث كانا ينتظران أن يقوم الإمام علي(عليه السلام) بتوليتهما بعض المناصب^(٣٢٨)، باعتبارهما من الثائرين على عثمان والمؤيدين لخلافته بعد مقتل عثمان، ولموقعهما المتميز في الأوضاع السياسية ، ولأنهما من

(٣٢٦) نهج البلاغة: خطبة ٧٤.

(٣٢٧) راجع النص : كتاب رقم (١) من نهج البلاغة.

(٣٢٨) راجع نهج البلاغة: الكلام : ٢٠٥.

المرشحين الستة في الشورى بعد مقتل الخليفة الثاني عمر، ولم يستجب الإمام علي(عليه السلام) لهذه الرغبة، بل بدا منه أنه سوف يتعامل بطريقة أخرى تختلف بشكل حاد عن المنهج الذي اتبعه الخليفة الثالث في قضية الأموال والمناصب والنفوذ.

وكانت عائشة قبلهما قد اتخذت موقفاً سلبياً تجاه خلافة الإمام علي(عليه السلام) عندما سمعت ببيعة الناس له، وهي في طريقها من مكة الى المدينة، حيث عبّرت عن عدم رضاها بقولها (قتل عثمان مظلوماً) ، فقفلت راجعة الى مكة لتتدبر أمرها.

وبعد ذلك حصلت اتصالات بين عائشة وطلحة والزبير الذي كان في نفس الوقت زوج أختها، ومن أجل تكوين جبهة معارضة لخلافة الإمام علي(عليه السلام)، الأمر الذي أدّى الى اتخاذ قرار من قبل الصحابييين بالسفر الى مكة للالتحاق بعائشة هناك فجاء يستأذنان الإمام علياً(عليه السلام) بالسفر الى مكة من أجل العمرة، ويخفيان عليه حقيقة الموقف السياسي.

وكان الإمام علي(عليه السلام) قد عرف الحقيقة والاتصالات والنوايا، ولكن مع ذلك أذنَ لهما بالسفر وقال لهما: (ما تريدان العمرة ولكن تريدان الغدرة)، ونصحهما بتقوى الله والتريث، والمهم في هذا الموقف هو أنّ الإمام علياً(عليه السلام) لم يتخذ أي إجراء ضد هذه الحركة السياسيّة المعارضة ذات النوايا الخطيرة، والتي تطورت بعد ذلك، إلا بعد أن تطور موقف الحركة الى العدوان المسلح والتمرد والعصيان على الدولة الإسلاميّة.

ومن خلال النصوص الكثيرة يبدو أنّ الإمام علياً(عليه السلام) حاول أن يتحدّث اليهم حديثاً سياسياً مقنعاً من خلال المباحثات والمراسلات والاتصالات الشخصية، وترك لهم حرية الحركة والرأي، حتى تحوّلت الى حركة تأمرية ضده، وضد الحكم الإسلامي.

الموقف الثالث: موقفه من الخوارج الذين انشقوا على الإمام علي(عليه السلام) لخط سياسي بعد أن كانوا يوالونه في الموقف العام، وذلك بعد حادثة الحكمين في محاولة فصل الخصام في صفين، حيث كان موقف الإمام(عليه السلام) تجاه أصل فكرة التحكيم هو الرفض لها، لأنه كان يعرف - كما صرّح بذلك أنها مجرد خدعة لجأ إليها معاوية وأصحابه عندما أدركوا أن كفة الحرب بدأت تميل لصالح الإمام علي(عليه السلام) ولكنه قبل بالفكرة تحت ضغط جمهور أفراد جيشه، لأنّ بعضهم كان قد انخدع بهذه الفكرة، وكان البعض الآخر منهم قد تعب من القتال ونتائجه، وبعضهم كان متآمراً ومنافقاً، ولما استخدمت أساليب التضليل، وتبيّنت النتائج السيئة إنشق عدد من أفراد الجيش على الإمام علي(عليه السلام) تحت شعار: (لا حكم إلا لله) رافضين حكم (الحكمين) ومتمردين على الإمام(عليه السلام) ، لأنه وافق على التحكيم ولم يصرّ

على الرفض^(٣٢٩). ونجد من خلال الموقف والمناقشات السياسية التي أجراها الإمام علي(عليه السلام) معهم أفضل دليل على هذه الحقيقة.

ففي نهج البلاغة الكلام (١٢٢) الذي قاله للخوارج وقد خرج الى معسكرهم وهم مقيمون على إنكار الحكومة، فقال(عليه السلام): أكلّم شهد معنا صفين؟، فقالوا: منّا من شهد ومنّا من لم يشهد، قال(عليه السلام): فامتازوا صفين فليكن من شهد صفين فرقة ومن لم يشهد فرقة، حتى اكلم كلاً منكم بكلامه، ونادى بالناس فقال: امسكوا عن الكلام وأنصتوا لقولي، وأقبلوا بأفئدتكم إليّ، فمن نشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها...» وأيضاً في الكلام ١٢٧:

«وإن أبيتم إلا أن تزعموا أنني أخطأت وضللت، فلم تضللون عامة أمة محمد(صلى الله عليه وآله) بضلالي، وتأخذونهم بخطئي، وتكفرونهم بذنوبي!، سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب...». حيث نجد من خلال هذه النصوص عند مراجعتها كيف يتّبع الإمام علي(عليه السلام) أسلوب المناقشة العلمية والسياسية الهادئة، وكذلك نلاحظ عدم اتخاذ الإمام علي(عليه السلام) لأي إجراء قضائي أو تأديبي، أو أي نوع من المطاردة والمؤاخذه لأولئك الذين كانوا ينتقدونه علناً، ويظهرون الارتباط السياسي بهذه المجموعات المعارضة سياسياً، كما نجد ذلك في النصوص التالية:

«فقد روى الرضي في نهج البلاغة أنّ الإمام علياً(عليه السلام) سمع البرج بن مسهر الطائي يقول له (لا حكم إلا لله) وكان من الخوارج فقال له: اسكت قبحك الله يا أثم، فوالله لقد ظهر الحق فكنت فيه ضيلاً شخصك خفياً صوتك حتى اذا نعر الباطل بخرمت بخوم قرن الماعز»^(٣٣٠) «وفي نص آخر أنّ الإمام علياً(عليه السلام) كان جالساً في أصحابه فمرّت بهم امرأة جميلة فرمقها القوم بأبصارهم فقال(عليه السلام): إنّ هذه الفحول طوامح وإنّ ذلك سبب هبابها، فإذا نظر أحدكم الى امرأة تعجبه فليلامس أهله فائماً هي امرأة كامراته، فقال رجل من الخوارج: قاتله الله كافراً ما أفقهه، فوثب القوم ليقتلوه، فقال(عليه السلام): رويداً إنّما هو سب بسب أو عفو عن ذنب»^(٣٣١) وهناك نماذج أخرى تشير الى هذا الوضع السياسي الذي كان يلتزم به الإمام علي(عليه السلام).

ومن خلال نهج البلاغة وما روي من كلام وحديث عن الإمام علي(عليه السلام) نلاحظ ظاهرة واضحة اتسمت بها فترة خلافته، وهي ظاهرة الأفكار والتحركات السياسية المتعددة،

(٣٢٩) راجع نهج البلاغة: الكلام: ٤٠ و ٢٠٨.

(٣٣٠) نهج البلاغة: الكلام: ١٨٤.

(٣٣١) نهج البلاغة: الحكم: ٤١٢.

والاتجاهات والميول الحركية المختلفة، وكان الإمام علي(عليه السلام) يتعامل مع هذه الظاهرة من خلال طرح الآراء والتصورات ومناقشتها ونقدتها بقوة - كما نجده في المنهج الذي اتبعه القرآن الكريم في معالجة الأفكار والتحركات السياسية التي كان يعيشها المجتمع الإسلامي في الصدر الأول - ترك الفرصة لبعض الشخصيات ، بل وحتى لبعض التكتلات السياسية أن تتحرك دون أن يمارس تجاهها القمع والمطاردة مع أن النبي(صلى الله عليه وآله) كان قد شخّص هؤلاء العناصر وتلك الجماعات.

(أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم)(٣٣٢) .

هذا كله في الجماعات التي لا تؤمن بالنظام وتتمرد عليه كله، فكيف بالجماعات التي تعترف بالنظام وتلتزم بقوانينه ومقرراته، ولكنها تسعى للاقتناع بأفكارها وآراءها بالطرق السلمية دون تهديد لأمن النظام السياسي أودعوة للتمرد عليه، فإن التعامل السياسي الذي يقرّ ويسكت عن هذا اللون من العمل السياسي يصبح أكثر وضوحاً، ويحضى بالأولوية في القبول.

ثانياً: الحدود الموضوعية لحركة هذا الهامش

لقد أشرنا في بداية هذا الفصل الى أن نظرية أهل البيت(عليهم السلام) في الوحدة الإسلامية في الوقت الذي تؤمن فيه بهامش التعدد والاختلاف ترى أن هذا الاختلاف له حدود وضوابط لا بدّ أن يقف عندها ، لئلا يبقى مفتوحاً، وينتهي الى الأخطار العظيمة التي قد تلحق بالجمع الإسلامي بسبب ذلك، وهي أخطار الفرقة والنزاع والتشتت.

وقد أشرنا الى بعض هذه الحدود في طيّات الحديث عن هامش الاختلاف والتعدد ، ولكن يحسن بنا أن نضعها في نقاط واضحة، ليتبين بذلك الإطار الواضح لهذا الموضوع من ناحية، وضمانات الوحدة في المجتمع الإسلامي من ناحية أخرى.

ضوابط التعدد الفكري والعقائدي

أمّا فيما يتعلق بالتعدد على المستوى الفكري والعقائدي، فيمكن أن نذكر نقطتين أساسيتين:

الأولى: أن يقوم الحوار والاختلاف على أساس الضوابط العلمية والمنطقية، والحوار العلمي الهادئ، والاحترام المتبادل للأفكار.

الثانية: أن يكون هذا الاختلاف محدوداً بحدّ عدم تجاوز الأصول العقائدية الضرورية في العقيدة الإسلاميّة، وهي التوحيد والرسالة واليوم الآخر، وأن لا يمس الضروريات التي يؤدي انكارها الى إنكار أحد هذه الأصول الثلاثة الأساسية. ويمكن أن نفهم هذا الحد من النصوص التي تحرّم دم المسلم وماله وعرضه وتعرّف المسلم بأنه المؤمن بالله والرسول واليوم الآخر، وكذلك النصوص التي تدعو الى التزام منهج (العلم) و(اليقين) في معرفة الحقائق، والاعتماد على القرآن الكريم في فهم الأفكار والعقائد باعتباره وحياً الهياً وكذلك الاعتماد على السنة النبوية الثابتة والرجوع اليهما في موارد الظن والشك، وكذلك النصوص التي تدل على الأخذ عن أهل البيت (عليهم السلام) باعتبارهم العارفين بالقرآن والسنة والعلماء بهما.

ضوابط التعددية في اطار الفقه والاجتهاد

وأمّا على مستوى الفقه والاجتهاد فنحن نلاحظ في نظرية أهل البيت (عليهم السلام) النقاط التالية:

الأولى : أن يستند الاستنباط في النهاية الى دليل علمي و يقيني، يشير الى قبول الشارع المقدّس لهذا المنهج في الاستنباط ، مع رفض الظنون والآراء التي تستند على المرجحات والاستحسانات.

الثانية: أن يكون موافقاً للكتاب الكريم والسنة النبوية الثابتة، وأن لا يكون مخالفاً لهما، فلا يصح بأي حال الاجتهاد في مقابل النص الثابت سواء كان هذا النص قرآنياً، أو سنة نبوية.

الثالثة: أن يكون الشخص الممارس لعملية الاستنباط قد وصل الى درجة علمية تؤهله لمثل هذا العمل العلمي المعقّد، وقد تمكّن من العلوم الأساسيّة التي تمثل القاعدة لهذه العملية، ويتصف بالورع والتقوى والعدالة.

ويمكن أن نجد ما يدل على هذه الحدود في النصوص الكثيرة التي وردت عن أهل البيت (عليهم السلام) ، والتي تحدثت عن ضوابط عملية الاجتهاد والاستنباط، والوصول الى الحكم الشرعي^(٣٣٣) .

حدود التعددية السياسية

إنّ العمل السياسي لابد أن يمارس في ضمن الاطار الشرعي، والخروج عن هذا الاطار غير جائز، ولكن مع ذلك عرفنا بأنّ نظرية أهل البيت (عليهم السلام) تسمح بالتعددية السياسيّة مع قطع النظر عن حكمها الشرعي، والمؤاخذة الإلهية عليها، فما هو هذا القدر الذي تسمح به، هنا يمكن أن نذكر بعض الحدود الأساسية والمهمة لهذه التعددية.

الأول: أن تكون التعددية ضمن الاعتراف بالنظام الإسلامي نفسه فلا يمكن أن يسمح الإسلام - بل ولا حتى الأنظمة الديمقراطية كما ذكرنا - بالعمل السياسي الذي يسعى للإطاحة بالنظام نفسه وتغييره.

الثاني: أن يكون التحرك سياسياً ضمن الالتزام بالقوانين الاجتماعية العامة التي وضعها النظام الإسلامي لتنظيم حياة الناس، كالواجبات المالية والدفاعية وغيرها.

الثالث: أن لا يكون العمل السياسي موجباً للإخلال بالأمن والنظام العام، كالأعمال المسلحة والاضطرابات التي تهدد أمن المجتمع، أو وحدته وتماسكه.

وفي هذا المجال يمكن أن نستفيد من بعض النصوص التي وردت في نهج البلاغة، فقد تحدث الإمام (عليه السلام) في تحديد الموقف تجاه مسير أصحاب الجمل الى البصرة قائلاً: «إنّ هؤلاء قد تمالؤوا على سخطة إمارتي، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم ، فانهم ان تمموا على فيالة هذا الرأي انقطع نظام المسلمين...»^(٣٣٤) .

«ما منهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة وسمح بالبيعة طائعاً غير مكره، فقدموا على عاملي بها وخزّان بيت مال المسلمين وغيرهم من أهلها فقتلوه طائفة صبراً وطائفة غدرأ، فوالله لو لم يصيبوا من المسلمين إلا رجلاً واحداً متعمدين لقتله بلا جرم جرّه لحلّ لي قتل ذلك الجيش كله إذا حضروه فلم ينكروا ولم يدفعوا عنه بلسان ولا بيد، دع ما أنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها عليهم».

(٣٣٣) يمكن مراجعة أبواب صفات القاضي من الوسائل ج ١٨.

(٣٣٤) نهج البلاغة: الكلام: ١٦٩.

نظريتان في مقابل نظرية أهل البيت (عليهم السلام)

ونجد في مقابل نظرية أهل البيت (عليهم السلام) في الوحدة في المجتمع الإسلامي نظريتين أخريتين:

النظرية الأولى: هي نظرية فرض الوحدة على المجتمع الإسلامي من خلال القوة، وهي نظرية يتبناها الطغاة في التاريخ الإسلامي، الذين حاولوا أن يحولوا الحكم في الإسلام الى حكم الأكاسرة والقيصرة، حيث أصبح الحكم في نظرهم يعتمد على آراء وميول ورغبات الحاكم، فهو ظل الله في الأرض، ورغباته وميولاته تمثل القوانين والأحكام والشرائع. ويمكن أن نشير بشكل مختصر الى معالم هذه النظرية في التاريخ الإسلامي من خلال النقاط التالية:

- ١ - التزام منهج القمع والمطاردة وخنق الأنفاس وفرض الآراء بالقوة والقهر.
- ٢ - تبرير العدوان والقتل وأعمال التشريد والمطاردة لكل المطالبين بالاصلاح والأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، بأن هذه الأعمال توجب الاختلاف وشق عصا المسلمين، ومفارقة الجماعة، ولاشك بأنّ النبي (صلى الله عليه وآله) دعا الى التزام الجماعة، وحفظ المجتمع الإسلامي، ولكنّ المقصود من كل ذلك - كما هو واضح - التزام جماعة المسلمين وحفظ المجتمع الإسلامي نفسه، الذي يخضع للقوانين والضوابط الإسلامية، أما إذا تحوّلت الجماعة الى جماعة الحاكم، والمجتمع والقوانين والضوابط الى مجتمع وقوانين وضوابط الأهواء والرغبات والميول، فالقضية لها مدلول آخر، كما نصّت على ذلك آيات القرآن الكريم الواضحة والروايات النبوية الثابتة.
- ٣ - منع الحركة السياسية والفكرية والمذهبية بجميع أشكالها وألوانها، والمؤاخذه عليها حتى بأبسط صورها.

النظرية الثانية: هي نظرية الصراعات المذهبية والعقائدية حيث شهد التاريخ الإسلامي في بعض الأدوار - وحتى في عصرنا الحاضر - بعض الاتجاهات التي ترى أهميه التركيز الى حد النزاع والإقتتال في بعض الأحيان من أجل قضايا صغيرة وجزئية، تتحول الى محور للصراعات والاهتمامات العامة لدى المسلمين ، وتستحق المطاردة والملاحقة، كما نجد ذلك في زمن المأمون الذي تحوّل الصراع فيه حول بعض القضايا العقائدية الجزئية، مثل قضية

خلق القرآن الى قضية مهمة تستحق ملاحقة أحد علماء المسلمين المهمين مثل أحمد بن حنبل، والذي تعرّض الى الجلد والسجن بسببها، وهكذا تحولت قضايا الخلافات الفكرية والعقائدية بين الأشاعرة والمعتزلة الى صراعات عنيفة يتم فيها التفتيش على العقائد والآراء، وتتبنى كل طائفة من المسلمين رأياً لتدخل في مواجهة مع الطائفة الأخرى، بحيث تحولت هذه القضايا الى هموم عامّة وقضايا كبيرة في الأمة. وهكذا الحال في بعض الخلافات المذهبية في بعض الأدوار، حيث جرت مذابح مدمرة لا رحمة فيها، لمجرد هذه الاختلافات ، والتاريخ الإسلامي مليء بمثل هذه الأحداث.

ونجد في عصرنا الحاضر من يحاول أن يركّز دائماً على هذه القضايا الصغيرة ليحولها الى مقامع من حديد، وسيوف مشهورة، ورماح مشرعة، وسهام مصوبة الى هذه الجماعة وتلك، ولا يسمح بالتعايش بين هذه الجماعات مادامت آراؤهم مختلفة في هذه الالتزامات الفكرية أو الفقهية أو السلوكية.

فتطبع الآن الكتب وبأعداد مليونية من أجل التبشير بهذه الخلافات والتأكيد على هذه الفوارق والفواصل، ويتم تبادل الاتهامات بين هذه الجماعات والطوائف، وفي كثير من الأحيان تكون اتهامات ظالمة ومفتعلة، ولا يسمح للعقول والأذهان ، ولا للأساليب العلمية في التحقيق والدراسة للوصول الى الحقيقة فيها، كما لا يسمع فيها نداء الأخوة والتعاون والوحدة والتفاهم والحوار، من أجل الوصول الى القواسم المشتركة.

إنّ هذا المنهج يمثل نظرية في فهم الوحدة الإسلامية، تتخذ طابع الأهداف السياسية المغرضة والخبيثة أحياناً، وتتخذ طابع التعصب الأعمى، والاصرار على الخطأ والذنب أحياناً أخرى، وتتخذ طابع التصور النظري لطبيعة العلاقات بين المسلمين الذي ينطلق من الخوف على الفئة والجماعة من الذوبان، أو الضمور أو التحول في الفهم والمواقف في بعض الأحيان الأخرى.

إنّ نظرية أهل البيت(عليهم السلام) تعتبر في الحقيقة تجسيدا واقعياً ومنطقياً للنظرية الإسلامية في الوحدة الاجتماعية، والتي تؤكد على أنّ يد الله مع الجماعة، وأنّ الشاذ من الناس للشيطان، كما أنّ الشاذ من الشاة للذئب، وأنّ المسلمين يجب ان يتعايش بعضهم مع البعض الآخر لأنّ المسلم أخ المسلم لا يخذله ولا يخونه وأنّ المسلم كفؤ المسلم فلا بدّ له أن يحترمه، الى غير ذلك من النصوص الكثيرة التي أشرنا الى بعضها، وتزخر بها مدرسة أهل البيت(عليهم السلام) .

إنّ هذا الموقف النظري لمدرسة أهل البيت (عليهم السلام) يزداد أهمية إذا عرفنا أنهم كانوا يقولون كلّ ذلك في ظل الظروف الصعبة التي كان بقية المسلمين يتعاملون فيها معهم بالقسوة والمطاردة، ومحاولات الإبادة والاحتواء، كما يمكن أن نعرف أهمية هذا الموقف أيضاً من خلال التطبيق العملي لأبناء هذه المدرسة العلماء الكرام. وحديث التطبيق حديث واسع وطويل، ولكن لا بدّ أن نعرف أنّ هذه المدرسة تنازلت عن الكثير من القضايا الخاصة في سبيل حفظ وحدة المسلمين، والدفاع عن العقيدة الإسلامية والمجتمع الإسلامي. ولعل أوضح هذه المواقف هو الموقف الذي وقفه علماء أهل البيت (عليهم السلام) وبشكل اجماعي ومن مختلف الانتماءات القوميّة تجاه الغزو الأجنبي للبلاد الإسلامية، والذي انتهى بسقوط الخلافة العثمانية، حيث وقفوا يدافعون عن هذا الحكم الذي اضطهدهم وطاردتهم وأبعدهم عن جميع المواقع الاجتماعية، وخرجوا الى الجهاد في سبيله، وخصوصاً في العراق، في الوقت الذي تخلى فيه عامة علماء أهل السنّة في ذلك العصر عن هذا الحكم لما تعرّض له من فساد وانحراف.

وهكذا الموقع الرائع لعلماء أهل البيت (عليهم السلام) في هذا العصر تجاه القضية الفلسطينية بشكل خاص، بالرغم من أنّ عامة أهل فلسطين هم من أهل السنة، ولكن تعاطفوا معهم ليس على المستوى السياسي والقضية الكبرى فحسب، بل على المستوى الاجتماعي والفردى، وعلى مستوى التضحية والبذل والعطاء في الدماء والأموال والديار.

وكان لموقف الإمام الحكيم، والإمام كاشف الغطاء، وأخيراً الإمام الخميني رضوان الله عليه الذي ارتفع بالقضية الفلسطينية الى القضية الأولى في مجمل عمله السياسي.. لقد كان لهذه المواقف الرائعة المعاني والتجسيد الرائع لهذه النظرية في الوحدة الإسلامية، ولهذا الفهم للأخوة الإسلامية.

إن قضية الوحدة الإسلامية من القضايا التي تحتاج الى المزيد من الدراسة والاهتمام والتأمل، حتى يمكن أن نصل الى أهدافها النبيلة المقدّسة، كما نحتاج فيها إلى منهج وأساليب نتبعها ونتبينها في أبحاثنا، لنخرج بها من النظرية الى التطبيق، وهذا ما سنحاول معالجته ولو بشكل مختصر في البحث الآتي.

التقريب

بين المذاهب والوحدة الإسلامية

التقريب بين المذاهب

تتخذ قضية التقريب بين المذاهب الإسلامية أهمية خاصة في الوقت الحاضر، ذلك لأنها ترتبط بقضية كبرى مهمة هي قضية الوحدة الإسلامية، حيث تشكل قضية التقريب العمود الفقري لقضية الوحدة الإسلامية.

وبشكل مختصر ومركّز نحاول هنا أن نتحدث عن قضية التقريب في عدة نقاط ، تبلور بمجموعها الاطار العام لقضية التقريب في هدفه ومنهجه وأساليبه ونتائجها.

النقطة الأولى: إنّ الهدف الأساسي للتقريب كما ذكرنا هو الوحدة الإسلامية، ويمكن أن نرى الى جانب ذلك بعض القضايا المهمة والأهداف الأخرى، حيث يرتبط تطور الفقه الإسلامي من خلال هذا التقريب والتلاقح في الأفكار، هذا ما حصل في الأدوار الأخرى من تأسيس الفقه الإسلامي، فإن الفقهاء من جميع المذاهب كانوا يتعايشون ويتدارسون النظريات الفقهية، وأساليب الاستنباط، الأمر الذي أثرى الفقه وجعله قادراً على مواجهة التطورات الحياتية في تلك العصور، وفي هذا العصر نجد حاجة ماسة لذلك - كما أشرنا في البحث الأول حيث يواجه المسلمون التحديات الحضارية والمشكلات الاجتماعية التي لا بدّ من استنباط حلولها والمواقف تجاهها من الشريعة الإسلامية.

وبالإضافة الى ذلك يمكن أن يقدم هذا التقريب مجموعة من الخيارات المذهبية الإسلامية للمشاكل المتعددة، بحيث يكون أمام الإنسان المسلم القدرة على الانتخاب بما يلائم ظروفه الحياتية، وأوضاعه الاجتماعية، حيث يفتح ذلك أمام المجتهدين الآفاق الواسعة والرحبة.

وفي موضوع الوحدة الإسلامية لا بدّ أن نؤكد العمل التقريبي في جميع المجالات التي ذكرناها للوحدة الإسلامية في آخر البحث الأول من أهمية معالجة الخلافات المذهبية، لا على أساس توحيدها في مذهب واحد، بل بمعنى احترام آراء المذاهب الإسلامية الأخرى. وكذلك قضية توحيد النظرة الكلية لدور الدين، وصيغة الحكم الإسلامي، والموقف تجاه أعداء الإسلام، والاهتمام المشترك بالقضايا الإسلامية في العالم الإسلامي، وغيرها من المجالات الأخرى.

النقطة الثانية: في معالجة أسباب الاختلاف لاجتنابها، فإنّ تشخيص أسباب الاختلاف يمثل الخطوة الأولى والأساسية في العلاج، والشأن في ذلك هو شأن تشخيص المرض الذي يمثل الخطوة المهمة في العلاج، ويمكن إرجاع الأسباب الرئيسية للخلاف الى الأمور التالية:

١ - الهوى والتعصب المذموم والتخلف الأخلاقي في معالجة القضايا المختلفة المرتبطة بالحوادث التي تواجه المسلمين، وخصوصاً القضايا التاريخية أو العقائدية أو القضايا التاريخية أو العقائدية أو القضايا ذات العلاقة بالخلافات المذهبية.

٢ - النشاط المعادي للإسلام الذي يسعى للتخريب بين المسلمين، وتمزيق صفوفهم من خلال إثارة الفتن، والتركيز على نقاط الضعف والإثارة، وشراء ضمائر ذوي القلوب المريضة، لتسخيرهم لأداء هذه المهمة.

٣ - الجهل بأوضاع المسلمين ومعتقداتهم، والاعتماد في معرفة ذلك على الأوهام والظنون غير المشروعة أو الاشاعات والتهم أو الروايات والأقوال الشاذة في هذا المذهب أو ذلك.

٤ - الاختلاف في ثبوت النص الشرعي المروي عن النبي(صلى الله عليه وآله) أو الأئمة، أو العلماء الذين ينتسبون لهذا المذهب أو ذاك ذات الطابع الموضوعي والعلمي، وذلك بسبب الفاصل الزمني الكبير بين زمن صدور النص وأيامنا هذه، حيث وقع في النصوص الاختلاف والتزوير والخطأ والاشتباه في النقل.

٥ - الاختلاف في فهم النص ومقارنته بالنصوص الأخرى، حيث أنّ القرآن الكريم الذي ثبت نصه بالتواتر فيه محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وعام وخاص... وأحاطت به القرائن الحالية التي تسمّى بأسباب النزول، والتي تلقي ضوءاً على فهمه وتفسيره، وهكذا الحال أيضاً في النصوص المروية في السنة النبوية.

٦ - الاختلاف في قيمة النصوص الصادرة عن أئمة أهل البيت(عليهم السلام) وأنها هل ترقى الى قيمة ما صدر عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) إمّا لأنهم معصومون أو رواة عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) بشكل صادق ومتقن، وكذلك النصوص المروية عن الصحابة، وهل أنها تنتسب الى رسول الله أو الى أشخاصهم، وهل أنّ جميع الصحابة عدول، أو أنهم يخضعون للنقد والتمحيص، شأنهم في ذلك شأن بقية الرواة؟

ولاشك أنّ معالجة هذه الأسباب مختلفه في طرقها ووسائلها، ولا بدّ من دراسة كلّ واحد منها، ووضع الأساليب المناسبة لهذه المعالجة.

فالتربية الأخلاقية العالية، والتقوى، والتعصب لله تعالى، والحرص على المصالح الإسلامية، وتشخيص الأعداء، والحذر من مؤامراتهم وأعمالهم ونشاطهم، والكشف عن ذوي الضمائر الميتة والقلوب المريضة وسائل مهمة في معالجة السبب الأوّل والثاني.

وكذلك البحث عن معتقدات ومتبنيات المذاهب الإسلامية من مصادرها النقية، والاعتماد في ذلك على أقوال أئمة هذه المذاهب المعروفة، ومن منطلق الأخوة الإسلامية، وحسن الظن، وروح التفاهم والمحبة، كلّ ذلك له تأثير كبير في معالجة السبب الثالث.

ووضع القواعد والأصول والضوابط المستنبطة من القرآن الكريم والسنة الصحيحة في إثبات النص، واتباع منهج الحوار العلمي الموضوعي، والمناقشة الهادئة، والدليل المنطقي والشرعي، يمثل أفضل الطرق لمعالجة السبب الرابع والخامس.

والفحص في أدلة الاتجاهين، واحترام الآراء العلمية في ذلك، يمثل أفضل طريقة للمعالجة والتقريب بينهما.

النقطة الثالثة: في القضايا الأساسية التي لا بدّ من الالتزام بها بين المسلمين لايجاد القاعدة والأرضية التي يقوم عليها بناء التقريب بين المذاهب الإسلامية، فإنّ التقريب يحتاج الى أجواء روحية وسياسية واجتماعية وأخلاقية وثقافية مناسبة يعيش وينموا فيها هذا الهدف الحيوي الهام.

ومن الملاحظ أنّ القرآن الكريم اهتمّ بايجاد هذه الأرضية عندما عالج قضية التقريب بين أصحاب الأديان السماوية ودعوتهم لمعرفة الحق، حيث أكدّ على القضايا الأساسية، مثل التوحيد، والوحي، والنبوة، والعدل، والأصل الواحد للرسالات، والتمجيد للأنبياء، الماضين، وذكر قصصهم وأعمالهم والحديث عن الأخلاق والمواقف المعنوية والاجتماعية، والموضوعات الثقافية المشتركة، والالتزام بالمنهج العلمي في البحث والرجوع الى العقل بعيداً عن التعصب والهوى والعاطفة.

ويمكن أن نشير الى بعض المعالم والخصائص لهذه القاعدة والأرضية:

أولاً : التأكيد على دور القرآن الكريم والسنة النبوية وأهل البيت (عليهم السلام) كقضايا مشتركة ومعترف بها ومسلّمة بين المسلمين، فإنّ القرآن الكريم نص ثابت محفوظ من

التحريف يمكن الرجوع إليه وان اختلف المسلمون في فهمه، ولكن يبقى وجوده عاملاً مهماً من عوامل وحدتهم، والرجوع إليه في الخلاف والنزاع، وكذلك السنة النبوية يرويها المسلمون جميعاً عن أهل البيت(عليهم السلام) وأصحاب الرسول، وهناك الكثير من النصوص المشتركة التي تثبت بالتواتر، أوبالطرق الصحيحة لدى الجميع، ويبقى الاختلاف في ثبوت بعضها أو فهمه مجالاً للحوار والبحث العلمي، مع الاحترام المتبادل للآراء.

وهكذا الحال في النقل الآخر للقرآن وهم أهل البيت(عليهم السلام) فانهم موضع الاحترام والقبول لدى عامة المسلمين، وقد ثبت بالنص القرآني، والسنة المتواترة، وجوب حبهم والرجوع إليهم^(٣٣٥)، وان اختلف المسلمون في حدود هذا الحب والمرجعية ، أوفي ما ثبت عنهم من نصوص وحديث ومواقف. ولذا فإن إثارة الشك حول ثبوت القرآن الكريم، أوتضعيف السنة النبوية، أوالطعن بأهل البيت(عليهم السلام) كما فعله بعض شذاذ العلماء من الفريقين، مما يؤدي الى المزيد من الاختلاف والفرقة والتمزق. ومن هذا المنطلق يمكن أن فهم تأكيد أهل البيت(عليهم السلام) على هذه الأصول المشتركة ، واستنكارهم لمدرسة الرأي في مقابل مدرسة الحديث، لأنّ مدرسة الرأي تتجه الى تضعيف السنة واهمالها، وتنطلق من دعوى أنه لم يثبت من السنة إلا عدد محدود من الأخبار والأحاديث.

ثانياً: التأكيد على القضايا المشتركة في الأصول والقواعد العلمية في وسائل الاثبات مثل قضية وثاقة الراوي، وقضية المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، وأنّ القرآن والسنة يفسّر بعضه البعض الآخر والاستقراء، وغير ذلك من قواعد المنهج العلمي في البحث كما هو مقرر في محلة.

ثالثاً: الاحترام المتبادل للآراء العلمية والمذهبية، والتعامل معها بروح البحث العلمي، والمناقشة ، بعيداً عن روح الاحتراب والاستفزاز والاستخفاف والتحامل والاتهام، والتأكيد على العلاقات الايجابية أوالعادية التي كانت قائمة بين أئمة المذاهب أنفسهم، وأخذ بعضهم عن البعض الآخر.

رابعاً : التخلي عن روح العدوان على المقدرات المذهبية والشعائر الدينية الخاصة بأصحاب هذا المذهب أوذاك، ومنع أساليب التكفير والتفسيق والسب واللعن للمذاهب، أوالأئمة والعلماء المتمذهبين بها، وكذلك الاعتراف بوجود المذاهب الصحيحة المتعددة - بعد تشخيصها - سواء على المستوى الرسمي أوالثقافي.

(٣٣٥) آية المودة والتطهير وغيرهما وحديث الثقلين المتواترة وغيره.

خامساً: العمل على اشاعة ثقافة واخلاقية التقريب بين المذاهب الإسلامية، وتجسيد مفهوم الأمة الإسلامية الواحدة من خلال التناصر بين المسلمين في قضاياهم الحياتية (مَن سمع مسلماً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم)....

النقطة الرابعة: في الإشارة الى بعض الوسائل النافعة في قضية التقريب، حيث أن قضية التقريب من أجل أن تتحول من مجرد رغبة نفسية وهدف نبيل ومقدس للمسلمين الى واقع عملي، يحتاج الى بعض الوسائل والأساليب، وهنا نشير الى نماذج من هذه الوسائل:

أولاً: القرآن الكريم في نظر العترة الطاهرة: أثرت شبهة كبيرة وواسعة ضد شيعة أهل البيت(عليهم السلام) باتهامهم بالقول بتحريف القرآن الكريم، مع ان عامة كبار علمائهم يقولون بصيانة القرآن الكريم من التحريف، ولاشك أن توضيح نظرة أهل البيت(عليهم السلام) الى القرآن وموقفهم العملي تجاهه، سوف يلقي الضوء على هذه الحقيقة ويدفع هذا الاتهام، ويمكن معرفة ذلك من العناوين التالية:

١ - جمع القرآن الكريم على يد أهل البيت(عليهم السلام) ، حيث كان أول من جمعه هو الإمام علي(عليه السلام) .

٢ - حثّ أهل البيت(عليهم السلام) على العناية بالقرآن الكريم من خلال التأكيد - في روايات كثيرة جداً - على فضل قراءته والتدبر فيه، وفضل حفظه، ومراتب ودرجات حملته.

٣ - سلامة القرآن الكريم من التحريف.

٤ - التأكيد على حجية القرآن الكريم في نصّه وظهوره من خلال الاستدلال به على الحكم الشرعي، والعقيدة الإسلامية والسنة التاريخية، وغير ذلك من القضايا، وكذلك من خلال جعله مرجعاً لتمحيص النصوص التي ترد عن أهل البيت(عليهم السلام) حيث طلبوا من شيعتهم عرضها على القرآن الكريم قبل الأخذ بها: (فما وافق القرآن فخذوه وما خالفه فاضربوا به عرض الجدار).

٥ - الاهتمام بتفسير القرآن الكريم ، خصوصاً من خلال طرح المصاديق الحية له، وتطبيقه على الواقع المعاش في كلّ عصر من عصور المسلمين، والتأكيد على أنّه حيّ باق.

ثانياً: توضيح الرؤية والموقف من الصحابة: لاشك ان الصحابة هم موضع احترام جميع المسلمين، ولكن أثيرت شبهات حول بعضهم، وحول الموقف منهم، وهنا لابد من توضيح الرؤية حولهم بشكل موضوعي، وذلك من خلال الأمور التالية:

١ - الصحابة في زمن الرسول(صلى الله عليه وآله) ودورهم في الدفاع عن الإسلام، وترسيخ دعائمه، وتضحياتهم العظيمة في سبيله.

٢ - التمييز بين الصحابة المؤمنين المخلصين الذين يمثلون الأكثرية منهم، وبين المنافقين الذين تحدّث عنهم القرآن، ممن اضرّوا بالدعوة الإسلامية في زمن الرسول وبعده.

٣ - موقف الإمام(عليه السلام) من كبار الصحابة الذي كان يتصف بالاحترام والتعاون والانفتاح حتى مع الاختلاف في وجهة النظر السياسية أو الفكرية، خصوصاً بعد وفاة الرسول(صلى الله عليه وآله) .

٤ - التمييز في الموقف من الصحابة بين القول بعدالتهم واحترامهم وبين القول ولو عملياً بعصمتهم، وكذلك التمييز بين بعضهم والبعض الآخر في العدالة ومستوى الالتزام، وأيضاً التمييز في الحجة بين روايتهم، وعملهم، وفتواهم.

ثالثاً: توضيح العلاقات المشتركة بين المذاهب الإسلامية في الصدر الأول وفي بدء التأسيس، وذلك من خلال تأليف الكتب، أو كتابة الأبحاث في الموضوعات التالية:

١ - رجال الشيعة الذين أخذ عنهم أهل السنة (الرواية أو العلم) ، فقد ذكر السيّد شرف الدين مئة راو من الشيعة الذين أخذ عنهم أهل السنة كنموذج لهذه الحالة.

٢ - رجال وعلماء أهل السنة الذين أخذ عنهم رجال الشيعة وعلمائهم الرواية والعلم.

٣ - الروايات المروية في كتب أتباع أهل البيت(عليهم السلام) من الشيعة الإمامية عن أئمتهم عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) بشكل مباشر، والمقارنة بينها وبين ما روي في كتب أهل السنة عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) ، فاننا سوف نجد تراثاً غنياً من المشتركات، الأمر الذي يؤكد هذه الأصول المشتركة.

٤ - ارجاع الروايات التي وردت في الفقه من كتب الشيعة مصادرها في كتب السنة، والمقارنة في ذلك.

وسوف نجد من خلال هذه الأبحاث الأواصر القوية بين المذاهب الإسلامية.

رابعاً: الأبحاث المقارنة في الفقه بين المذاهب الإسلامية، خصوصاً في المجالات العبادية، والمعاملات ، والأحوال الشخصية، وتشجيع طبع الكتب والكراسات فيها، حيث سوف نلاحظ من خلال ذلك ضيق الهوة المفتعلة الفاصلة بين مذاهب أهل السنة ومذهب أتباع أهل البيت(عليهم السلام) وبقية المذاهب الإسلامية، إذ قلّ مانجد فتوى لعلماء المذاهب الإسلامية لا يوجد قائل بها من علماء أتباع أهل البيت(عليهم السلام). وكذلك العكس ولو بشكل نادر.

خامساً: الفصل في البحث العقائدي والفقهية بين المواقف السياسية والفكرية وبين المواقف الفقهية، أوبين المواقف الفقهية والمواقف العقائدية. فإنّ هذا الفصل سوف يكون له أثر موضوعي ونفسي في التقريب.

ولاشك أن التقريب في المواقف السياسية بين الحكومات والبلدان الإسلامية ذات الالتزام الديني بالاسلام ، له أثر عظيم في عملية التقريب بين المذاهب، لأنّ الخلافات السياسية في مثل هذه الحكومات والبلدان تنعكس على المواقف المذهبية والفقهية والفكرية والثقافية.

سادساً: تشجيع إقامة الجمعيات والمنظمات والمراكز التي تعمل لتقريب المسلمين بعضهم مع البعض الآخر، وإشاعة ثقافة التقريب والتعددية المذهبية والوحدة في القضايا الأساسية.

سابعاً: تحكيم منطق البلاغ والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والحوار العلمي الهادئ، بعيداً عن التعصب والارهاب الفكري والسياسي، وإثارة النعرات الطائفية والتطرف في المواقف، وذلك من خلال إقامة المؤتمرات العلمية للبحث والحوار واللقاءات المشتركة بين جميع العلماء والمفكرين ، وكذلك إقامة المؤسسات والمنظمات المشتركة بين علماء المذاهب الإسلامية، للقيام بالنشاطات الثقافية والاجتماعية المشتركة، واتخاذ المواقف السياسية الواحدة تجاه القضايا الكبرى للأمة.

ثامناً: تشجيع عملية التعايش الاجتماعي بين أبناء المذاهب الإسلامية من خلال الشركات والمؤسسات الاجتماعية، وتبادل الزيارات واللقاءات والاشتراك في الاحتفالات والمراسيم لهذه الجماعة وتلك، وغير ذلك من الوسائل الاجتماعية، وقد دعا أهل البيت(عليهم السلام) شيعتهم بشكل خاص الى هذا التعايش من خلال نصوص صريحة وصحيحة، سواء في الممارسة الاجتماعية أو العبادية كما أشرنا سابقاً.

وفي الختام فإنّ المسلمين إذا اتجهوا نحو هذا الهدف المقدس فسوف يجدون أمامهم مجالات واسعة وكثيرة تقربهم من هذا الهدف، وبالتالي يكونون في موضع الرحمة الإلهية التي هي وراء كلّ توفيق وسداد. (أنك لا تهدي مَنْ أحببت ولكن الله يهدي مَنْ يشاء)^(٣٣٦). والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين.

الفهرس

- كلمة المجمع لمؤتمر تكريم الشهيد السيد محمد باقر الحكيم (قدس سره) ... ٧
- كلمة المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) ... ١٣
- تمهيد ... ١٧
- الوحدة الإسلامية من منظور حضاري ... ١٧
- أهمية الوحدة الإسلامية ... ١٩
- اتجاه رياح الحرب الباردة ... ٢٠
- مستلزمات الموقف الإسلامي في الصراع ... ٢٨
- أ - مواجهة التحديات المعاصرة ... ٢٨
- كيفية معالجة هذه التحديات ... ٣٢
- ب - تطوير المضمون المعنوي للحالة الإسلامية ... ٣٣
- التمييز بين العقل والعاطفة ... ٣٤
- ج - الوحدة الإسلامية ... ٣٦
- أ - مبررات الوحدة الإسلامية ... ٣٧
- ب - مجالات الوحدة الإسلامية ... ٣٩

الباب الأول

الوحدة الإسلامية من منظور قرآني

- الفصل الأول: ظاهرة الوحدة ... ٤٧
- ظاهرة الاختلاف ... ٤٩
- الاختلاف بسبب العقائد ... ٥٤

الاختلاف والوحدة بين الديانات الإلهية ... ٦٢

معالجة أسباب الانحراف عند أهل الكتاب ... ٦٥

إطار الوحدة بين الديانات الإلهية ... ٦٨

الفصل الثاني: الوحدة في المجتمع الإسلامي ... ٨٥

البعد الأول: أسس الوحدة الإسلامية ... ٨٦

الأساس الأول: عقيدة التوحيد ... ٨٦

الأساس الثاني: الطاعة للرسول (صلى الله عليه وآله) ... ٨٩

الأساس الثالث: رعاية القيادة الإسلامية للأمة ... ٩٣

الأساس الرابع: الأخوة الإيمانية ... ٩٥

الأساس الخامس: القاعدة الأخلاقية ... ١٠٥

أ - العهد والميثاق ... ١٠٦

ب - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... ١٠٧

ج - الحكم بالقسط والعدل ... ١٠٨

د - التعاون على البر والتقوى ... ١٠٩

هـ - اشاعة الخير والبر ... ١١١

البعد الثاني: وسائل تحقيق الوحدة الإسلامية ... ١١٢

الأول: الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ... ١١٣

الثاني: الصلح والمساعي الحميدة ... ١١٥

الثالث: العفو والصفح ... ١١٦

الرابع: الوقوف في وجه العدوان ... ١١٧

الخامس: الاعتماد على العلم في معالجة الحوادث ... ١٢٠

السادس: التعامل على أساس ظاهر الإسلام ... ١٢٤

البعد الثالث: النتائج والآثار ... ١٢٥

الباب الثاني

الوحدة الإسلامية في نظرية أهل البيت (عليهم السلام)

الوحدة والاولويات الإسلامية ... ١٣٢

١- العقيدة الإسلامية ... ١٣٣

٢- الدولة الإسلامية ... ١٣٦

٣- الوحدة الإسلامية ... ١٤٣

الفصل الأول: منهج الوحدة الإسلامية ... ١٤٥

المعلم الأول: ارساء الوحدة الإسلامية على أساس النظرية القرآنية ... ١٤٥

المعلم الثاني: تبني قضايا الأمة الكبرى ... ١٤٩

المعلم الثالث: التعايش الاجتماعي بين جماعات المسلمين ... ١٥٤

التعايش الاجتماعي بين أبناء المذاهب الإسلامية ... ١٥٦

المعلم الرابع: التقية ... ١٦١

قيمة «التقية» في نظرية أهل البيت: ... ١٦١

علاقة التقية بموضوع الوحدة ... ١٦٣

الخيار الأول ... ١٦٤

الخيار الثاني ... ١٦٤

الخيار الثالث ... ١٦٥

نظرة عامة ومتكاملة لمنهج التقية ... ١٦٧

الأول: تعرض الإنسان الى الخطر أوالضرر ... ١٦٧

الثاني: كتمان الأسرار ... ١٧١

الثالث: المجاملة والتلطف وحسن المعاشرة مع الناس ... ١٧٦

الفصل الثاني: هامش الاختلاف والتعدد ... ١٨١

أهمية وجود هامش الاختلاف ... ١٨١

نظرية أهل البيت (عليهم السلام) تتميز بوجود هذا الهامش ... ١٨٣

أولاً: مجالات الهامش التعددي ... ١٨٤

الأول: الحرية الفكرية والعقائدية: ... ١٨٤

الثاني: الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية الفقهية ... ١٩٠

- الثالث: القبول بالتعددية السياسيّة ... ١٩٧
- ثانياً: الحدود الموضوعية لحركة هذا الهامش ... ٢٠٦
- ضوابط التعدد الفكري والعقائدي ... ٢٠٧
- ضوابط التعددية في إطار الفقه والاجتهاد ... ٢٠٧
- حدود التعددية السياسية ... ٢٠٨
- نظريتان في مقابل نظرية أهل البيت (عليهم السلام) ... ٢١٠
- التقريب بين المذاهب والوحدة الإسلامية ... ٢١٧